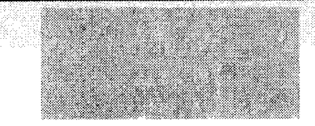
مطبوعات

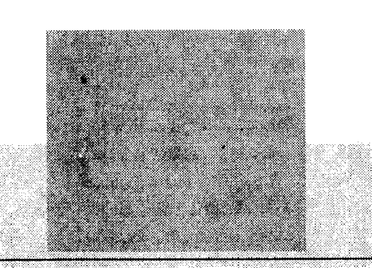


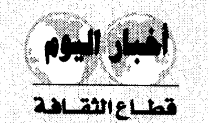
قطاع الثقافة



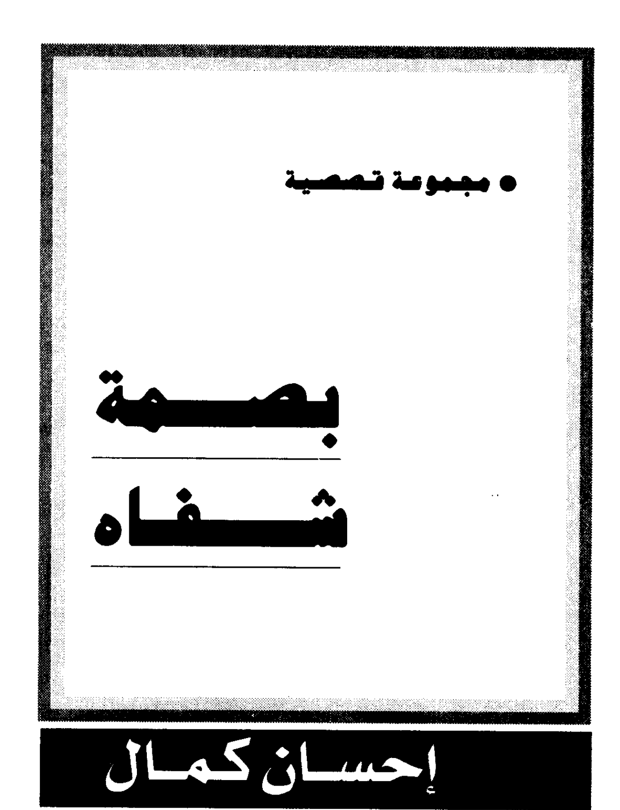
رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده





دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ ش الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠


● مجموعة قصصية
بصمة
شفاه
إحسان كمال

١

بصمة شفاه

لكمه أمين الشرطة فى كتفه بقوة.. وهو يسأله مشيرا برأسه تجاه سيارة النقل الرابضة فى فناء القسم :

– أهذه سيارتك ؟

أجاب محمود باقتضاب :

– نعم.

فجأة لفتت انتباه الأمين بقعة حمراء على مقدمة كابينة السيارة.. فضيق عينيه وهو ينظر إليها متفحصا، حتى إذا عرف كنهها انطلق يضحك ساخرا وهو ينظر إلى محمود.. قال بلهجة ذات مغزى :

– ما شاء الله.. شيء جميل والله!

بدأت أحاسيس محمود تشف وهو ينظر إلى ذات البقعة.. أو البصمة.. بصمة شفاه.. شفتيها! عندما استطاع أخيرا أن يجمع مقدم ثمن السيارة.. كان أول ما فكر فيه أن يسرع إلى حبيبة عمره.. فريال، يعرف مقدما أن مفاجأته سوف تسعدها.. لكنه لم يتصور أبدا أن تصل سعادتها إلى ذلك الحد! اندفعت ناحية السيارة و.. وقبلتها!! فانطبعت آثار أحمر الشفاه فوق الزاوية اليمنى للكابينة راسمة بصمة شفتيها.. هتف بها مازحا :

هل أنت حولاء يا فريال؟ هذا وجه السيارة وليس وجهي!

لكنه لم يكن غاضبا حقا... على الاطلاق، كان يحس كما لو كانت القبلة قد طبعت فوق خده هو نفسه بالفعل.. فما سعادة فريال بالسيارة في حد ذاتها.. وإنما لما سوف تحققه لهما.. إنها ستجمع شملهما بعد طول انتظار.. ربما لو كانت والدتها ما تزال على قيد الحياة.. لما اضطر إلى الانتظار كل هذه السنوات، كانت قطعا ستدبر النقود اللازمة لجهاز ابنتها ولو من تحت الأرض، زوجة أبيها قالت لها وهي تفتح عينا وتغمض الأخرى :

– من يريدك عليه أن يتحمل كل شيء.. والدك لن يستطيع المعاونة بقرش واحد.. لديه أطفال يريد أن يربيهم.. كما رباك، لست وحيدته يا حبة عيني!

وكان محمود يريدها.. من كل قلبه.. كانت في نظره كل العالم.. عالمه هو على الأقل، لكن يبدو أن القلب الممتلئ بالحب لا يعوض

خـواء اليدين من المال، كـم ود لو اغتـرف لها حـفنة من النجـوم المتلألئة فى السـماء وقدمها إليها.. كم ود لو حـملها وطار بها إلى جنة الأحلام.. مع الأسف.. الفقر تحـول إلى أوحال تعرقل انطلاقه وتمسك بأقدامه.. وكان لابد من الصبر.. والحرمان.

بدأ يحرم نفسه من كل شىء ليـضع القرش على القرش، أيضا راح يعـمل - بعد الظهـر - فى بعض المهن الصـغيـرة، لكن تمضى الشهـور ولا يزيد ما جمعـه على بضع مئات من الجنيـهات! وتمر الليالى عليه طويلة لا يكاد ينام ربعهـا، لكن.. حتى الأرق له أحيانا فـوائد! وهو يتقلب على أشـواك الخـيارات.. بزغت فى رأسـه تلك الفكرة المدهشـة.. أن يشتـرى سيـارة نقل مسـتعملـة بالتقـسيط ويعمل عليها.. بعد الانتهاء من أقساطها يستطيع إدخار ريعها، كل مبلغ تدره بمثابة لبنة تضاف لعش حبه السعيد.

من أجل ذلك كانت قبلة فريـال الحارة «لو جنة» السيارة.. التى سـوف تحملـهمـا على جناحـيـها «لتـوصلهـمـا» إلى ذلك العش! ولو كان محمود قد غضب فعلا.. أو شعر بالغيرة لتلك القبلة التى ضلت طريقـها.. كمـا ادعى، أكان يحرص على بقـاء أثرها كل هذا الحرص؟ كم مـرة غسلهـا منذ اشتـراها؟ عقب كل رحلة تقـريبا.. فليس أحب إلى قلبه من رؤيتـه لها مجلوة تتلألأ كـالعروس.. لكنه فى كل عملية غسيل يحـرص على ألا تقترب اسفنجة التنظيف من بصمات شفتى فريال!

سعـيد هو إذن بهـذه البصـمة.. ينتـشى قلبه كلمـا رآها تحلى

مقدمة السيارة الأصـيلة.. لم تتعب ولم تشك رغم تعدد الرحلات، إنه لا يرفض أبدا أى طلب مهـما كان بعد المكان المنشـود.. ويكفيه ليبدد تعبه أن ينظر إلى عينى فريال.. كأنهما محطتان يلتقط فيهما أنفاسه!

حـتى جـاء ذلك المطلب المشـئـوم.. نقل شـحنة من الأسـمـاك واللحوم والدواجن.. من احدى الجمعيـات الاستهلاكية إلى المخزن الرئيسى لإدارة المجمعات.. كـما قيل له، رئيس المخازن الذى اتفق معه بدا كريما.. غاية الكرم، طيلة تحميل السيارة «يرش» السجائر المستوردة.. والشاى والمثلجات، وتطول العـملية ليحل عليهم وقت الغداء.. فينتحى جـانبا ثم يخرج من كيس صغيـر معه ساندوتش الفول، لكن قبل أن يقضم أول لقمة منه.. يجد يدا تنتزعه وتطرحه بعيدا! ينظر مندهشا لرئيـس المخازن الذى يضحك وهو يناوله لفة أنيقة تفوح منها رائحة الشواء :

– معقول؟ بعد كل هذا المجهود تتناول غداءك من الفول؟

ويضحك محمود بدوره :

– الفول صديقى!

الرائحة مـغرية تثير الشـهية.. لم يأكل الكباب منذ فـترة، لكن الأكلة الشهية لم تكن هنية بنفس القدر، فـجأة وجد أمعاءه تتقلص ـ كلمة متناثرة من هنا.. مع كلمة شاردة من هناك.. جعلت الحقيقة تنساب داخله كـما جسد ثعـبان أملس.. حقـيقة العمليـة وأبعادها الدنيئة، لم يكن مدير المخازن المزعوم سوى تاجر شاطر.. اتفق مع

مدير تلك الجمعية الاستهلاكية على شراء كل حصتها من اللحوم والدواجن والأسماك المدعومة والتى كان المفروض أن تباع لسكان الحى جميعا.. ليعيد هو بيعها بعد ذلك بالأسعار الحرة، مقابل إكرامية لهم طبعا. عملية تهريب إذن!!

عندها تذكر معاناة أمه فى الطوابير أمام المجمعات.. والمعاملة المهينة التى تلقاها - هى وأمثالها - من موظفى تلك الجمعيات، أيضا تخيل فريال بدورها - بعد زواجهما - تقف نفس الموقف.. فغلى الدم فى عروقه.. لا.. لن يشارك إطلاقا فى مثل هذه الانحرافات، يحتاج بشدة للمال المعروض عليه كى يكمل مهر فريال.. لكنه مال غير حلال، لم يدخل جوفه يوما رغيفا إلا عن طريق شريف.. فهل يتزوج من مال حرام؟ أبدا ولكن.. ماذا عساه يستطيع أن يفعل؟ مضى يقلب الأمر فى رأسه حتى وصل إلى أفضل الحلول.

انتهت عملية شحن السيارة.. فجلس التاجر بجواره بعد أن وصف له الطريق إلى المخزن، وفعلا سار محمود بالسيارة فى نفس الطريق المطلوب حتى تراءى له قسم الشرطة من بعيد.. فإذا به ينحرف ويقتحم فناء القسم وهو يصرخ فى الشرطى المعين للحراسة :

- اقبض على هذا الرجل!

أمام الشاويش النوباتشى وقف يسرد الأمر طالبا تسجيله فى محضر رسمى.. لكن الشاويش ينهره :

– هل هى وكالة ليس عليها بواب؟ ألا ترى أكثر من خمسة أشخاص يجلسون أمامى، إن لكل منهم شكوى يريد تسجيلها فى محضر.. وإذن فانتظر دورك.

صاح بلهفة :

– بل يجب أن تسمعنى أنا أولا.. حيث المجرم.. المهرب.. فى السيارة، أخشى أن.

قاطعه الشاويش صارخا وهو ينتفض من أمام مكتبه :

– من أنت حتى تقول لى «يجب»؟ هل تظننى أعمل عند أبيك أجلس. أصمت تماما.. وإلا..

انصاع محمود للأمر وجلس على المقعد الذى أشار إليه الشاويش.. الوقت يمر.. بدأ القلق ينشب مخالبه فى قلبه.. حاول فى متابعته لأقوال الشاكين أن يخرج من توتره.. لكن عبثا.. بين السين والجيم التى لا تكاد تنتهى مع واحد حتى تبدأ مع آخر.. راحت الدقائق تتسرب، اضطر أن يغادر القاعة وينزل الدرجات إلى حيث ترك السيارة.. ليجد الرجل بالفعل غير متواجد بها، لكنه بعد تفكير يسير قدر أنه لابد عائد.. من غير المعقول أن يترك بضاعة تساوى عدة آلاف من الجنيهات ويذهب إلى غير رجعة، من ثم جلس داخل السيارة ينتظر، ليفاجأ بعد دقائق باثنين من المخبرين يجذبانه من السيارة ليمثل أمام حضرة الشاويش النوباتشى.. ويصيح فيهما :

– لست أنا المتهم حتى تجذبونى هكذا.. إننى المبلغ.

لكن المخبرين يظلان على إمساكهما له من يمين ويسار! ويضحك فى نفسه :

– غبيان.. مثل رئيسهما الشاويش النوباتشى تماما.. الذى يهتم بالنظام والدور قبل اهتمامه بضبط متهم!

وتزداد ضحكته وهو يتخيل منظر المخبرين عندما ينتهرهما الشاويش :

– اتركوه.. إنه المبلغ وليس المتهم.

مثل الموكب أخيرا أمام الشاويش النوباتشى.. ليصاب محمود بالذهول.. شعر كما لو كانت حواسه كلها قد أصابها العطب فتعطلت عن العمل أحس كأنه قد أصبح خارج الزمان والمكان، الناس أمامه عائمون، كلهم يسبحون بين السماء والأرض، فرك عينيه بشده فعادتا تدخلان الخدمة ليرى أمامه ذات المنظر الذى أذهله.. كان مدير المجمعات المزعوم.. أو التاجر المنحرف يجلس بجوار الشاويش رافعا رأسه بشموخ! قال الشاويش الهمام :

– هل هذا هو السائق اللص الذى جئت سعادتك يا فؤاد بك للتبليغ عنه؟

رد الأخير بكبرياء جهورى وكأنه يلقى خطبة عصماء :

– أجل هو.. إن جريمته مضاعفة.. حيث بسرقته لحصة الجمعية يحرم البسطاء ومحدودى الدخل.. من أصحاب المعاشات إلى الأرامل.. إلى الموظفين المسحوقين المطحونين.. من حقهم فى السلع التى تدعمها الدولة من أجلهم!

محمود يجاهد ذهوله فيـركز نظراته على شفتى الرجل الداهية تبعثران الكلمات.. حتى ينهيها بتقديم بلاغه :

– لقد حملت الحصة كلها فى سـيارته لينقلها إلى المجمع.. فإذا به يحاول سـرقتها والفـرار بها لولا أن أرغمتـه على الدخول إلى فناء القسم.. تحت تهديد مسدسى المرخص!

وينشـغل الشاويش فى الرد على التليـفون فـيهمـس فؤاد بك لمحمود :

– عامل شـريف حضرتك؟ سـترى، عموما إذا عـدت إلى عقلك وكففت عن التدخل فيما لا يعنيك وبقيت فى حالك.. سوف أسحب بلاغى!

الدنيا تـدور بمحمود.. حـتى لم يعد يدرى أعلى رأسـه يقف أم على قدميه، كل الأشياء أمامه تحولت إلى كائنات متوحشة تريد أن تفترسه.. كاد أن يبكى.. لكن حتى الدموع أبت أن تسيل.. تحجرت فى مقلتيه، الشاويش يحدث الرجل الجالس فى عظمة واستعلاء :

– بعد اذن سـعادتك.. تنزل سعـادتك مع المتهم وسيـادة أمين الشرطة لمعاينة السيارة.

فى فناء القسم.. أمام الـسيارة النقل.. عاود الأمين اسـتجوابه لمحمود وهو مازال ينظر ساخرا لبصمة الشفاه القانية :

– إذن فأنت معترف بملكيتك للسيارة؟

لم يرد مـحمـود الذى كان ينظر لذات البـصمـة.. لكن بنظرات مفعمة بالحنان والحنين!

٢

الدجاج لم يعرف بعد

نظرت إلى وجهها فى المرآة وضحت كانت منذ ثوان تكاد تبكى، لكنها تذكرت « نكتة » والدتها والتى قالتها لها ذات يوم وهما تتناقشان، دارت المناقشة يومها - مثل كل مناقشاتهما - حول تصرفاتها التى دائما لا تحظى برضاء الأم، أكثر من مرة كانت تعاتبها :

– تتأخرين كثيرا بالخارج يا نجلاء.. وأنا أخشى عليك.. ودائما تقاطعها نجلاء صارخة :

– أرجوك يا أمى.. لا تقولى لى «أخشى عليك» مرة أخرى، هذه الكلمة بالذات تثيرنى.. يمكن أن تخرجنى عن طورى! حيث

تشعرني وكأن كفاحي ومجهوداتي كلها ذهبت أدراج الرياح!

سنوات طويلة من عمرها أنفقتها فى الدفاع عن المرأة وحقوقها ومساواتها بالرجل.. فى كل شىء، طبعا كان معها العديد من الزميلات.. بل والزملاء.. كما ساندها فى حملاتها الإعلامية المكثفة بعض الأديبات والصحفيات.. لكنها فاقتهن جميعا، لم يصل حماس أى منهن لمثل حماسها قط.

هل كان السبب والدها ووالدتها! تسلط الأول وخنوع الأخيرة؟ ليكن.. فخلف كل مصلح أو مبشر أو زعيم.. ظلم شخصى تعرض له.. أو عقدة أفسدت عليه سعادته، رغم أن والدها رحل عن دنيانا وهى بعد فى المدرسة الثانوية.. إلا أنها لم تنس أبدا معاملته القاسية لأمها.. التى ألغت شخصيتها تقريبا، كأنه رسم لها دائرة واحتواها داخلها.. فلا تحيد عنها قط!

كان نسخة أخرى من سى السيد عبدالجواد.. أغلب حديثه مع أمها أوامر ونواه، والأم سلبية تماما.. تلبى دونما أى مناقشة، حدود عالمها تبدأ من غرفة النوم.. وتنتهى عند المطبخ! عندما بدأت نجلاء تشب عن الطوق.. لامت أمها على قبولها هذا الهوان.. فردت تلك ورنة سعادة تزغرد بين كلماتها :

– ليست كل نظراته لى أمرا وزجرا.. أحيانا تحمل لى الحب!

– حب؟!.. تسمين نظراته هذه ـ عندما ترتدين بعض قمصان النوم التى تظهر مفاتنك ـ حبا؟!

قالت الأم بضيق : ماذا إذن؟

ولم ترد، لا تستطيع أن تقول لها الصفة الحقيقية لتلك النظرات، عادت الأم الطيبة.. أو بمعنى أدق الساذجة تقول فى حياء سعيد :

– طبعا حب، ألم ترى غيرته يوم جاء شقيقه الأكبر.. فلم أسارع بارتداء الروب والطرحة.. على أنه مثل شقيقى.. مع ذلك ثار ثورته العارمة؟

وابتسمت نجلاء فى نفسها.. «إن ثورته هذه بالذات هى التى تنفى أحاسيس الحب.. إنه التملك، يرى أن هذه المفاتن حق له وحده.. يجب ألا يستمتع ـ حتى بالنظر إليها ـ سواه»، لكنها لم تنطق.. فما أشقى الكلمات التى لا تجد أذنا تفهمها.

عندما التحقت بالجامعة.. فوجئت باتجاهات وتيارات عجيبة، بدأت بعض الزميلات الباقيات فى السنة الأولى لرسوبهن.. يحاولن استمالتها إليهن.. وتوجيهها كى تصبح طالبة عصرية مثلهن! إنهن يتجملن باستعمال الماكياج المبالغ فيه والبرفانات والإكسسوارات الخ الخ، لكنها رفضت نصائحهن التى ادعين أنهن يردن بها صالحها، الحقيقة لم تكن بحاجة كبيرة لهذه المساحيق.. وقد وهبها الله بشرة بلون الضوء الذى تحاصره ستائر وردية!

رفضت التجميل وهى تذكر طبق ريش الضأن الذى برعت أمها فى صنعه وتقديمه، حيث تقضى فى تجميله أكثر من ساعة.. فتضع فى عظمة كل ريشة ورقة مفضضة مشرشرة.. ثم تحيط الريش جميعا بفصوص الباذلاء ووردات البطاطس السورية، كل

ذلك ليثير شهية الآكلين.. وبالفعل.. مامن مرة قدمته وترك مدعووها نسيرة واحدة فى الطبق!

لا.. لن تكون طبقا من ريش اللحم.. ولا قالبا من قوالب الحلوى. إنها إنسانة.. لها شخصية وعقل وإدراك وفكر.. لها آراء ونظريات ومبادىء.. ونظام حياة.. تمر الأعوام عليها فى الكلية وهى على مبادئها.. وأمها أيضا على تبرمها بتصرفاتها.. إنها تحتج عليها ولا توافقها على تركها شعرها بدون تصفيف.. على عدم استعمالها حمالات الصدر.. على ارتدائها البلوزات الخفيفة أو البنطلونات الضيقة، يوما تصيح فيها بدهشة :

– كيف ترفضين التجمل ثم تسيرين هكذا وشعرك الغجرى المجنون.. كما تقول الأغنية.. ينسكب على جانبى وجهك وكتفيك بهذه الفتنة؟ وأيضا بعدم ارتدائك حمالات الصدر تتركين لنهديك أن يترجرجا بشكل مثير مع كل حركة تأتينها.. ثم...

تقاطعها : أنت تعلمين جيدا أننى لا ألقى بالا لأى شىء من هذا الذى تدور افكارك حوله.

تسخر الأم : أنت لا تفكرين فى ذلك لكن الرجال الذين يرونك بهذا الشكل يفكرون، إنك تذكرينى بنكتة سمعتها عن شخص أصيب بلوثة فى عقله.. حتى راح يتصور نفسه حبة قمح.. لذلك كان يفزع عندما يرى أمامه دجاجة.. لتخيله أنها ستأكله، أهله أدخلوه مصحة للأمراض العقلية، وكان طبيبه يواليه بالعلاج بضعة أسابيع ثم يستدعيه ليسأله «ماذا أنت؟» فيقول «حبة قمح»،

فيؤشر على أوراقه بأنه مازال مريضا، حتى جاء يوم سأله هذا السؤال فأجاب « أنا بنى آدم طبعا».

سأله ثانية مستوثقا «يعنى لست حبة قمح؟» فإذا به يضحك باستنكار «لا طبعا!!» سعد الطبيب جدا بهذا التحول.. لكنه قبل أن يكتب له على الخروج يعاود السؤال «يعنى إذا رأيت أمامك بعض الدجاج.. لن تخاف وتجرى منها؟ فيرد المريض العجيب : بل أجرى طبعا، فأنا أعلم أننى بنى آدم.. لكن من يدرى.. أليس محتملا أن الدجاج مازال يعتقد أننى حبة قمح.. من ثم يلتهمنى؟!».

وتضحك نجلاء حتى تكاد تستلقى على قفاها وهى تهتف :

– ما أخف دمك يا أمى العزيزة، إننى أفهم ما تريدين قوله.

لكنى اختلف معك.. حيث نظرة الإنسان لنفسه تنعكس بالضرورة على نظرة الناس إليه، وطالما الفتاة تسير بثقة.. ولا تتصور نفسها قط فريسة.. فأى رجل أمامها لا يمكن أن يتحول إلى ذئب، وأحب أن أطمئنك أكثر.. فأنا لا أختلط إلا بالرجال الذين أعرف أنهم يشاركوننى نفس آرائى وأفكارى.

وفعلا هى كانت قد تلاقت بأفكارها مع دعوة تنادى بها مدرسة لها بالكلية، ومن حول هذه المدرسة يتجمع عدد من المعيدات والطالبات.. فى محاولة لحمل المجتمع على الإحساس بمساواة المرأة مع الرجل، طبعا المساواة كلمة محدودة لخطوات غير محدودة على نفس الطريق.

فرحت نجلاء بهذه المدرسة.. أحست كأنها تعزف على أوتار اهتماماتها، وبالطبع بادرت بالانضمام إلى جماعتها، سمع رئيس القسم بأفكارهن المتحررة.. فاقتحم اجتماعهن ذات يوم.. واحتج لاقتصارها على عضوات من الجنس اللطيف فقط، سأل المدرسة :

– كيف وأنت فى كلية الحقوق.. أى حارسة للقانون.. تخالفين القانون؟!، هذه عنصرية.. لابد أن تفسحى المجال أمام الرجال ذوى الفكر الحر المستنير أن ينضموا لحركتكن.. طالما يوافقونكن عليها، أنا مثلا أؤيد بشدة تقدم المرأة وتخلصها من كافة المعوقات.. هذا لصالح البلد ككل، إنها نصف المجتمع.. وعندما يخطو مجتمع ما على ساقين.. فإنه يسير بأسرع من مجتمع يعتمد على ساق واحدة.. ويجر الثانية المشلولة!

لسعادة المدرسة بأستاذها استأذنته أن يصبح رئيسا للجمعية الوليدة، بعد تمنع يسير وافق شاكرا، ثم اقترح تسميتها «جمعية المرأة إنسانا»، رفض التسمية الأولى «المرأة إنسانة» إمعانا فى التأكيد على إيمانه بالمساواة.. حتى فى المصطلحات!

الرئيس فعلا متحمس جدا، إنه يفتح أبواب مكتبه ـ أكبر مكتب للمحاماة فى البلد ـ أمام أعضاء وعضوات الجمعية فقط كى يتمرنوا لديه، وهكذا التحقت نجلاء بمكتبه بعد تخرجها، وقد أقبلت على العمل معه بحماس وارتياح شديدين، فما أسعد أى شخص يحب جميع المحيطين به فى عمله.. متفقين معه فى التفكير والمثل، حيث يضمن عند ذلك أنه لن يواجه بنظرات الفضول السخيفة

تنغـرس فى صدره.. أو بتـهكمات الاسـتنكار اللاذعـة تتطاير من حوله.. أو بسيل المجادلات العقيمة تصدع رأسه!

قبل انتهاء عامى التمرين بعـد شهور.. فاجأها أستاذها الجليل د. عبدالواحد بهمسة فى أذنها :

– أريد أن أتحدث إليك فى أمر هام.. عند انتهـاء مواعيد المكتب انتظرينى ولا تنصرفى.

ردت بكل بساطة : تحت أمرك.

ولو أنه قال لها إنه يريدها فـى أحد الكازينوهات.. أو حتى فى شقته.. لردت نفس الرد! فمـاذا فى حديث إنسان مع إنسان مثله؟ بعد انصراف جميع من بالمكتب ناداها ليلقى إليها بالمفاجأة المذهلة:

– منذ مدة وأنا أشعر بحبك يتـسلل إلى قلبى حتى ملأه تماما.. تعرفيننى لا أحب اللف والدوران لذلك اختصر فاطلب منك الزواج، فقط أرجـو أن يكون ذلك فى السر – ولو مـؤقتا – حـتى لا أجرح أولادى وزوجتى المريضة!..

نجلاء تكاد تصعق.. حتى أنها لا تسـتطيع الرد.. صفعها طلبه، وكأنه أطلق عليـها رصاصة.. رصاصـة من الحروف.. اخترقـتها وتناثرت شظاياها داخلها، أهذا هو رئـيس جمعيتـهم ذات المبادىء العظيمة؟ حقا ما أفدح المقابل الذى ندفعه ثمنا للحكم.

طبعـا فكرة الزواج لا تتعـارض مع مبادىء الجـمعـية.. لكن.. عندما يكون الزواج زواجا حقا، والزواج الحق لا يكون إلا لأمر من اثنين لا ثالث لهـما، إما شـخصـان تفاهمـا وانسجـما ويودان أن

يمضيا رحلة الحياة متشابكى الأيدى.. يؤنس كل منهما وحشة الآخر.. يملأ كل منهما حياة الآخر وعقله ووجدانه.. لدرجة الاندماج فى كيان واحد.. وبالطبع لابد من إطار مشروع يرضى عنه المجتمع من حولهما، وإما لرغبتهما فى إنجاب أطفال، بالطبع د. عبدالواحد لا يطمع فى تفاهم أو انسجام فى حين يكبرها بثلاثين عاما.. ولا فى ائتناس يملأ فراغ الوقت والقلب وهو سيظل فى منزله مع أسرته، ولا فى انجاب أولاد وعنده منهم فوق الكفاية، سرية الزواج طبعا تفرغه من كل محتواه.. حتى لا يصبح له من هدف سوى.. مضاجعة الفراش، لا تعنى سوى أن رجلا يشتهى جسد أنثى.. ويريد أن يستمتع به.. فقط لا غير!!

أحست كأنها تتردى إلى قاع الحقيقة.. إذن د. عبدالواحد.. رئيس جمعية المرأة إنسانا.. أسقط هذه الصفة عن نجلاء.. ولم يعد يرى فيها سوى.. جسد فاتن.. فائر.. مثير.. أسال لعابه! طلبه جعلها تشعر بعد الذهول بالألم.. بالمرارة.. بالتقزز.. بالغثيان!

أسرعت إلى دورة المياه لتفرغ ما فى جوفها، وقفت أمام الحوض لتغسل شفتيها.. أبصرت وجهها فى المرآة الكبيرة.. ويبدو أنها لكى تمنع نفسها من البكاء.. فتحت فمها فجأة وراحت تضحك، حمدا لله أن لم يكن بجوارها أحد.. وإلا لظنها مجنونة.. حيث كانت تكاد تبكى من دقيقة واحدة، لكنها تذكرت نكتة والدتها.. لتكشف لحظتها فقط أنها ليست نكتة.. بل حقيقة مرة.. الدجاج فعلا لم يعرف بعد أن بطل النكتة ليس حبة قمح!

٣

لا أخونها

قال الراوى :

– عندما جاءت الليلة الثانية بعـد الألف.. كان الضيق والضجر والملل قد بلغ بشهريار أقصى درجـة ـ تنبه فجأة إلى أن شهرزاد قـد غررت به حـتى جـعلتـه يبقى على حـيـاتهـا ألف ليلة وليلة.. بواسطة هذه الحكايات التى لا تنفد منهـا جعبتهـا أبدا، كلما انهت إحداها بدأت الأخـرى قبل أن تنتـهى الليلة.. فلا يطلع الصـباح إلا وقد تركته أمام موقف شديد الإثارة من القصة الجديدة!

لا.. يجب أن ينتهى كل هذا.. الليلة. وقرر أمرا جللا.. لا حكايات

ولا روايات بعد اليوم.. مهما تفننت شهرزاد فيما تحكى ، حتى لو استطاعت أن تعبر الزمن بآلاف الأعوام لتصل إلى أواخر القرن العشرين.. فتحكى له بعض حلقات « السسبنس » الحديثة مثل رجل الستة ملايين دولار والمرأة الخارقة وغيرها، لا.. لا فائدة، انتهت اللعبة يا شهرزاد ويجب أن تسلمى بذلك لقد دنت ساعتك.. الليلة سيطير رأسك لتشاركى مع العشرات ممن سبقنك فى دفع ثمن خيانة واحدة من بنات جنسك.

أحست شهرزاد بغريزتها أن هناك شيئا.. فملأها القلق.. لكنها حاولت أن تخفيه خلف المزيد من العطور والمساحيق والاكسسوارات، ما كادت تلتقى بشهريار حتى تأكدت من صدق حدسها، ألفته متغيرا.. خشنا فى لقائها.. ملولا فى مشاهدته للراقصات، تجاهلت كل ذلك.. كأن لم يكن.. قالت بلهجتها الموشاة بالرقة والأنوثة الخلابة :

– بعد إذن مولاى.. أبدأ حكاية الليلة!

قال شهريار بحزم :

– مللت الحكايات يا شهرزاد فلا أريد المزيد.

هتفت : يا لها من مصادفة يا مولاى.. أن تمل الحكايات فى نفس الوقت الذى انتهت فيه ذخيرتى منها.. عدا حكاية واحدة فقط.. هى التى سأحكيها لك الليلة!

– ولا سطرا واحدا يا شهرزاد!

قفزت مشاعر خيبة الأمل على ملامحها.. قالت باحتجاج :

– كان يجب أن تعطينى – ولو على غير ورقة تمغة – إنذارا منذ ليلة الأمس، لقد هيأت نفسى منذ الصباح لحكايتها.. استحضرتها من أعماق تلافيف مخى حتى طرف لسانى.. فإذا لم أحكها لربما وقفت فى حلقى فأموت مختنقة.. وتحرم أنت من لذة قتلى.. وأيضا يحرم مسرور من المعلوم الذى تعطيه له مقابل كل رأس، ألا يكفى هذا المسكين أن دخله – كما تعلم طبعا – قد نقص كثيرا هذه الأعوام منذ كففت عن قتل زوجة كل ليلة؟!.

– لكن كما هيأت أنت نفسك للحكى.. هيأت أنا نفسى لأنتهى منك الليلة. وطبعا لو بدأت حكايتك هذه فلن تنتهى منها قبل عدة ليال.. مثل عادتك..

– أبداً أبداً.. إنها حكاية قصيرة جدا.. لن تستغرق روايتها أكثر من ساعة.. وبالتأكيد سأنتهى منها قبل منتصف الليل، ولا أظن مسرورا ينام مبكرا هكذا.. وأقصى ما سيحدث أنه ربما يطلب «أوفر تايم» مقابل عمله بعد ساعات العمل الرسمية!

– أووه.. لقد أصبحت حكاياتك تضجرنى.

– لن تضجرك حكاية الليلة.. فهى تختلف عن حكاياتى السابق.. وكانت كلها خيالية.. أما حكاية الليلة فهى حقيقية.. أبطالها مازالوا أحياء!

زفر شهريار مستسلما : حسنا يا شهرزاد.. هاتى ما عندك.

وبدأت شهرزاد تحكى :

– بلغنى أيها الملك السعيد.. ذو الرأى السديد والعمر المديد.. أن تاجرا كبيرا ثريا جهز قافلة ضخمة مزودة ببضائع كثيرة.. فى رحلة طويلة، وحدث خلال الرحلة أن هبت عاطفة عاتية.. اغرقت سفينته الكبيرة، لكن التاجر الحاج صالح.. استطاع النجاة مع أغلب رجاله.. وأيضا غالبية بضاعته.. عدا فرد واحد.. الشاب محمود، الذى كان الحاج يحبه جدا ويعتبره ساعده الأيمن.. لأمانته ودماثته وإخلاصه، لذلك تألم كثيرا لغرقه.

لكن الحقيقة أن محمود لم يغرق.. فقد تشبث بقطعة خشب.. ظل الموج يدفعها حتى ألقاه أخيرا على الشاطىء الآخر.. فاستلقى فوقه منهوك القوى.. ليروح فى نومة طويلة.. هى أقرب إلى الإغماءة.. بعد ساعات استيقظ وهو يشعر بدبيب العافية يسرى فى عروقه، فكر فى أن يستكشف المنطقة.. فإذا بها غابة موحشة.. لا يعيش عليها إنسان واحد.. بل يبدو أن قدما بشرية لم تطأها قط، لكنه لم ييأس.. قدر أنه ربما – بعد عدد من الأيام – تمر سفينة أمام شاطئه فتلتقطه.

ولكن.. كيف يعيش هذه الأيام التى لا يعلم إلا الله هل تطول أم تقصر؟ تجول قليلا فوجد بعضا من أشجار الفاكهة.. فضل طبعا أن يأكل من الثمار التى يعرفها، بعد إسكات صرخات المعدة برزت مشكلة السكن.. ودار يبحث حتى وجد ما يشبه خميلة صغيرة بين الأشجار.. تصلح لأن يجعل منها مأوى له.. يخفيه عن أنظار

الحيوانات، لكن لم تكد الشمس تقترب من المغيب حتى بدأ يشعر بالبرودة تكاد تخترق عظامه.. فما كان منه إلا أن أشعل النار فى بعض الفروع.. قرب مدخل مسكنه النباتى الأنيق!

عندما سرى الدفء فى أوصال محمود بدأت عيناه تغفيان، ولا يدرى كم ظل نائما حتى فتح عينيه فجأة.. ليرى على ضوء الوهج المشتعل حية ضخمة تقبع فى مواجهته.. بحركة تلقائية مد يده بسرعة إلى الغمد حول وسطه وبه مسدسه.. لكنه ما كاد يصوبه ناحية الحية حتى توقف إصبعه فوق الزناد.. وعيناه تحدقان فى عينى الحية، هل هناك أشعة مغناطيسية تنبعث من عينيها تسبب الشلل لمتلقيها؟.. اطلاقا.. فقط استهواه منظرها فراح يتأملها، أول مرة - رغم كثرة أسفاره - يرى حية بهذا الحجم.. وأيضا بهذه الروعة والبهاء.. جسدها الناعم يلمع وقد وضحت فيه النقوش المعرجة كأنما خطها أعظم رسام! أغرب ما فى الأمر وقفتها الهادئة تجاهه.. لا فم مفتوح ولا لسان يتلوى ولا أى استعداد للانقضاض.. لكأنها صديقة ألوفة تجالس صديقا عزيزا! ليست أية صديقة.. فى عظمتها وجلالها وشموخ رأسها.. تبدو كما لو كانت أميرة أو ملكة متوجة تنازلت عن علياء عرشها الفخم لتمنحه شرف زيارتها!!! وطالت فترة التأمل.. لكنه كان مطمئنا إلى أن أصبعه فوق الزناد.. ومن ثم فهو لن يحتاج إلى أكثر من جزء من الثانية ليجهز عليها.

أخيرا قدر أنه استمتع بمنظرها بما فيه الكفاية.. وأنه يجب أن

يبدأ الهجوم لينتـهى منها، وللمرة الثانية يتوقف أصـبعه.. قال له شىء فى نفسه «ولماذا تكون أنت البـادىء؟ المعتدى؟.. الأفضل أن ترد إذا بادرتك هى»، وبدأ داخله صـراع يقـول له «عن أى اعتـداء تتحدث؟.. إن قتل حية مؤذية شىء مستحب فى أى ظرف».. ويرد صوت آخر «إذن انتظر حتى يصدر عنها ما يؤكد أنها مؤذية فعلا» ويحـتج الصـوت الأول «معنى هذا أن أظـل متنبـهـا لا تطرف لى عين.. لأدافع عن نفـسى فور أى أعتـداء لها.. والأسلم أن اتخلص منها كى أنـام مطمئنا» ولا تعيى الصـوت الآخر الحـجة فيـسارع بالرد «لقد كنـت نائما فعـلا عندما جاءت.. لكنهـا لم تمسك بأدنى سوء!».

عندمـا وصل إلى هـذه النقطة توقف الصـراع داخـله ليـخلى تفكيـره كله للبـحث عن تعليل لهذا الحـدث الفـذ، هل لأنها كـانت مقرورة.. وعندما أحست بالدفء أدركت بذكائها أن هذا الرجل هو صاحب تلك النار فرفضت أن تؤذيه اعترافا بجميله؟.. أم لأنه كان سـاكنا فرفـضت أن تبـدأ هى بإيذائه منتظرة مـا يكون منه؟ لكن المعروف عن الحيـات أنها غادرة.. حتى أن اسمـها يطلق كنية على كل جبـان يضرب حيث لا يتـوقع أحد منه الضرب.. فـهل تختلف تصرفـات بعض الحيـات عن بعضـها الأخرى؟ الآدمـيون تتـباين طبـاعهم لأنهم يتـصـرفون بعـقولهم.. وطبـعـا لكل عقل تفكيـر، بالنسبة للحيوانات.. الغريزة هى المحركة.. وهى دائما شىء واحد.

وعـاد يفكر.. لا.. ليست الحـيـوانات دائما تتـصرف بصـورة

واحدة.. فى قريته حمير سلسة وأخرى تحرن فترفض العمل.. أيضا الخيل.. لكل حصان مزاج خاص وطباع متميزة.. وحتى القطط، أخذ يتذكر تصرفات مختلفة لبعض الحيوانات حتى يستطيع عقله أن يتقبل هذا التعليل الوحيد.. رغم شذوذه، حتى بين هذه الزواحف السامة الخطيرة.. تختلف الطباع أو التصرفات!

فجأة رآها تتحرك.. فشدد أصبعه على زناد مسدسه.. لكن الحية اتجهت إلى الخارج فى نفس هدوئها الغريب، دقق النظر ليجد أن الشمس قد بدأت ترسل بخيوطها الذهبية على العالم فتدفئه، ظل يتلفت حواليه ويصيخ السمع فترة طويلة حتى تأكد أن الحية لم تكن تناور.. وإنما هى قد انصرفت لحال سبيلها فعلا.. ومن ثم أغمض عينيه وراح فى سبات عميق.

فى الصباح كان قد نسى كل شىء عنها وشغل فكره بحياته الجديدة وأرضه البكر المجهولة.. مضى يجول فيها وكأنه اقطاعى عتيد يتفقد أملاكه الشاسعة، وهو يسير وجد بعض نباتات البوص.. فاختار واحدة.. ثم مضى يشذبها ليصنع منها «نايا» رشيقا.. فقد يسليه عزفه عليه، عندما بدأ يصنع الناى تذكر الحية.. أو زائرة المساء فى الليلة الماضية.. فأخذ يهرش رأسه وهو يسائل نفسه: هل كان ما حدث بالأمس واقعة حقيقية.. أم كان حلما أم كابوسا صوره له تعبه وإجهاده؟.

جمع بعض الفاكهة ومضى وهو يحث قدميه حتى يصل عريشته قبل حلول الظلام.. والبرودة، أيضا لم ينس جمع كمية

مضاعفة من فروع الأشجار.. ليستدفىء بها.

مرة أخير يتغلب الليل.. دار الصراع المحتوم.. ولم يطل.. خر النهار صريعا، بدأ يوقد النار.. كما فعل فى الليلة السابقة، ليتأكد أن موضوع الحية لم يكن حلما أبدا.. حيث تكرر حينئذ ما حدث من قبل بالضبط، جاءت الحية.. بنفس هدوئها التام وهيبتها المعهودة.. لتقبع بجوار النار!، ظل فترة يتأملها وهو غير مصدق.. فى الليلة الماضية كان بين النوم واليقظة.. لكنه الآن فى تمام صحوه وكامل وعيه.. رغم ذلك فها هى الحية تنتصب بقوامها الرشيق أمامه.. لا تبدو عليها أية نية للغدر، فجأة تذكر نايه.. فتناوله وراح يعزف عليه.. وإذا بالحية الجميلة تتمايل، بجسمها الأملس يمينا ويسارا.. وهو بمظهرها مبهور مسرور، وقد وصلت به النشوة إلى حد إغفال وضع مسدسه فى حالة استعداد. عند الفجر انتهت الحفلة التى أقامها لضيفته.. وأحياها بعزفه الشجى.. فغادرت الحية خميلته بعد أن حركت رأسها حركة صغيرة.. تصور محمود أنها بها تحييه وتشكر له حفاوته بها!

مضت عدة ليال والحية تكرر مجيئها يوميا بعد الغروب.. لتبقى لديه حتى الفجر، وأسعدته هذه الزيارات.. كان يحس كأنها - بمجرد حضورها - تنقله إلى عالم مسحور ملىء بالنشوة والخيال.. يظل يبادلها النظرات أحيانا.. ويعزف لها فترقص أحيانا أخرى، بل إنه أصبح يتحدث إليها.. فيروح يشكو لها طول انتظاره لسفينة تنقله إلى بلده.. حيث تنتظره أمه.. وسنية.. معبودته.. التى

خطبها بعد حب تحدى الصعاب.

لم تتأخر الحية عن موعدها معه ليلة واحدة.. هل هذا معقول؟.. ألا يحدث يوما أن تذهب إلى مكان بعيد فى الغابة فتضل الطريق؟.. أو تنشغل بأمر آخر؟.. بدأ يشك أنها ليست حية.. ربما كانت جنية من إخواننا تحت الأرض.. أحبته فتقمصت جسد حية لتحضر إليه كل يوم!

ذات مساء خيل إليه أنه سمع صفارة قرب الشاطىء.. فيسرع لتحرى الأمر.. وما كان أشد سعادته عندما وجد سفينة فعلا.. فخلع قميصه وراح يلوح لها، لم يصدق عينيه عندما رآها تستجيب وتتجه ناحيته، واستبدت به فرحة عارمة حتى لم يستطع انتظارها.. فألقى بنفسه فى الماء كى يتلقاها فى منتصف الطريق.. لتزداد الفرحة أضعافا حين يتبين أن السفينة تحمل قافلة الحاج صالح نفسه.. ويتعانقان، يستأذن محمود من معلمه حتى يأتى بحاجياته.. بعض أشياء جمعها وأشياء أخرى صنعها فى وقت فراغه الطويل بالجزيرة، وينزل معه الحاج صالح :

– فرصة أتفرج على هذه الجزيرة الغريبة.

عندما اقتربا من التعريشة كان الفجر قد اقترب.. وإذا بالحاج صالح يصرخ وهو يستل خنجره.. ويسرع محمود فيمسك بيده بينما الحاج ما زال يصرخ :

– هناك حية ضخمة بجوار فراشك.

– نعم.. لكنى أرجوك ألا تقتلها.. فهى صديقتى!

– صـديقـتك؟!.. يبـدو أن اقـامـتك الطويلة وحـدك قـد ابتلتك بالجنون.. أو أنه اصابتك ضربة شمس!

– أبدا.. أبدا.. فقط اسمعنى.

لكن الحاج استطاع تخليص يده من يد محـمود.. وهجم ناحية الحـية.. فـإذا بمحمـود دون أن يعى يبـادره بلكمـة هائلة فى فكه تطرحه أرضا، وعـندما استعاد وعـيه كانت الحيـة قد ذهبت، قال الحاج فى غضب جارف:

– انت تلكمنى؟.. أنت؟!

– آسف جدا.. لكنك لـم تنتظر لتسمع منـى.. ولو لم أفعل ذلك لكنت قتلتها.. وهى كما قلت لك أليفتى، وأنا لا أخونها، قضينا معا ليالى عديدة.. اسـمرتنى فيها وابهجـتنى، فهل يكون جزاؤها منى بعد ذلك صديقـا أحضره ليقتلها؟ كـيف أفعل هذا؟.. بعد أن رأيت جسدها الأملس يهتـز طربا على أنغام نايى.. كيف أستطيع أن أراه يختلج أمامى اختلاجة الموت؟

– لقد شككت أول الأمر أنك أصبت بلوثة.. لكننى الآن متأكد.

– على العكس.. لقد كان ذلك حريا أن يحدث لى.. لولاها!

– رغم كل ما قلت فهى أولا وأخيرا حـية.. ولن أغفر لك إطلاقا أنك بعـتنى من أجل حيـة.. ويجب أن تضع فى حـسبـانك أنك لن تعمل معى بعد اليوم.. أبدا.

عندما بدأ محمود يجمع حاجياته حانت منه التفاتة إلى سقف الخميلة.. وإذا به يسرع ويشيح بعيدا.. وإن كان بصعوبة كبيرة فعل.. فقد كانت هناك.. وكم ود لو ودعها.. لكنه خشى أن يلفت نظر الحاج إليها فيعاود محاولة قتلها.. وقد لا يستطيع منعه فى المرة التالية، سارا متجاورين فى اتجاه السفينة.. والحاج ما زال يرغى ويزبد.. ويقول ويعيد.. مهددا،متوعدا، أما محمود فقد كان يشعر بسعادة كبيرة.. رغم أنه فقد عمله.. وفقد أيضا رضاء ولى نعمته.. لكن الأرزاق بيد الله، ويكفيه أنه استطاع أن يهب الحياة لمن بددت وحشته ووهبته السعادة والبهجة والسمر والائتناس.. عشر ليال وليلة.

قال الراوى :

– عندما جاء مسرور بعد انتهاء شهرزاد من حكايتها.. كان شهريار يبدو وكأنه غير موجود.. أو موجود بجسده فقط.. أما عقله فكان بعيدا.. هناك.. فى الغابة الموحشة.. تمتم وكأنه يوجه كلامه إلى لا أحد :

– وهب لها الحياة؟.. لحية؟ لأنها بددت وحشته ووهبته السعادة والائتناس؟.. الحية؟! بعد أن رأى جسدها يتمايل طربا لا يستطيع رؤيته يختلج اختلاجة الموت؟.. الحية؟! قدر جميلها وعشرتها؟.. الحية؟!

اضطر مسرور أن يعلن عن قدومه ثلاث مرات حتى تنبه شهريار أخيرا فرفع رأسه إليه متسائلا :

- ماذا تريد يا مسرور؟

- جئت فى الموعد الذى حددته لى منذ ساعة واحدة يا مولاى.

قال شهريار : لا.. لا أريدك الليلة يا مسرور.

- إذن فهل تريدنى غدا يا مولاى؟

غمغم شهريار وكأنه يكلم نفسه :

- لا أعتقد أننى سأحتاج إليك مرة أخرى فى الحريم.. يا مسرور!

٤

عــائــش فى الوقت الضائع

راح د. خالد يجرى بعض الاختبارات السريعة على الجهاز قبل أن يبدأ تشغيله على المريض، فجأة سمع أصوات هرج ومرج، قبل أن تقتحم القاعة مجموعة من الضباط والجنود بأسلحتهم ! قال له أكبر الضباط رتبة وهو يوجه إليه نظرات متحديّة :

– بعد إذنك .. سننقل هذا الجهاز .

بهت الطبيب : تنقلونه ؟!.

كيف ؟!.. لماذا ؟!.. إلى أين ؟!

قــال الـضــابط بصلــف : ولو أن هذا ليس من شـــأنك إلا أنى سأقول لك إلى أين، ربما يسعدك معرفة البلد، .. إنها العاصمة .

– لكن نحن الآن فى العاصمة، الكويت !

لكزه الضابط محنقا فى كتفه بمسدسه :

– لا أقصد عاصمة المحافظة التاسعة عشرة، وإنما عاصمة الدولة كلها .. بغداد العظيمة الأبية، انظر إليها كيف هى صامدة طوال عشرات الأيام وآلاف الطلعات للمعتدين من كل هاته الدول؟.. ألا ترى ذلك أمرا يدعو للفخر ؟

– وإذا كنتم تؤمنون حقا بأنكم لن تخرجوا قط من الكويت، وأنها أصبحت للأبد المحافظة التاسعة عشرة .. فلماذا تجردونها من كل المعدات والمرافق المهمة ؟ أليس من حق كل محافظة أن تكون بها مستلزماتها ؟

بدأ الجنود يتحركون ليلتفوا حول الطبيب فى شكل مستفز، فى حين احتد الضابط :

– كثيرون دفعوا حياتهم بسبب كلمات أقل تهجما من كلماتك هذه، فلتحمد الله أننى واسع الصدر هذا الصباح !.

طبعا تحت خيمة الاحتلال الغاشم كل شىء مباح، لذلك اضطر الطبيب أن يغير لهجته من التحدى إلى الرجاء :

– إننى أحدثك باسم الإنسانية التى نحن أخوان فيها، إننى طبيب ولا شأن لى بإجراءاتكم السياسية، لكن هناك معلومة ربما كنت تجهلها، وربما لو عرفتها لغيرت من موقفك وأقلعت عن عزمك، لقد سبق أن نقلوا إلى بغداد جميع أجهزة غسيل الكلى التى كانت متوافرة بالكويت، حتى لم يعد بها سوى هذا الجهاز،

وبالتالى فإن على وجوده تتوقف حياة العشرات من المصابين بالفشل الكلوى هنا .

لكنه كان كمن يستجدى الآمال وسط حضيض اليأس . قال الضابط فارغ الصبر :

– يا سيدى أنا لا أقرر ولا أتخذ مواقف، إنها أوامر جاءت لى من رياستى وليس أمامى إلا أن أنفذها، وهذا آخر إنذار لك بتركنا نقوم بمهمتنا، إلا إذا كنت ترغب أن تقوم بدور البطل الشجاع فى تراجيديا ركيكة، فتصمم على أننا لن نأخذ الجهاز إلا على جثتك. فى هذا الحالة نحن نرحب جدا بتمكينك من القيام بهذا الدور !

تمتم د. خالد باستسلام :

حسنا، الجهاز والمستشفى كله طبعا، تحت أمركم . فقط أستسمحكم أن نقوم بعملية الغسيل لهذا المريض، الشيخ مندور، حيث كنا على وشك أن نبدأ، عموما العملية لن تستغرق أكثر من ساعة .

صفعه الضابط برده الرافض :

– مستحيل، ثم ما الفائدة، إنه لن يغسل بعد ذلك ما دمت تقول إنه لا توجد وحدات أخرى هنا، كم يستطيع أن يعيش بدون غسيل للكلى ؟.

– نحو أسبوع، أو أكثر قليلا .

صمت الضابط قليلا ثم راح يضحك ويضحك فى شبه هستيريا. أخيرا قال بخيلاء وعيناه تقتحمان المريض فى قحة :

– الحقيقة أنه يستهوينى كثيرا الشعور بأننى أمتلك القدرة، من حيث استطاعتى أن أمنح مريضك ذاك أسبوعين من الحياة، لذلك سنذهب لنقل أجهزة أخرى ثم نعود إليك بعد ساعة، فقط على هذا الشيخ أن يتذكر طوال ذلك الأسبوع، كلما أكل، كلما شرب، كلما ضاجع زوجته، كلما نام وصحا، بل حتى كلما تنفس، أننى أنا الذى وهبت له الحياة جميع تلك الأيام !.

انخرط باقى الضباط والجنود فى الضحكات العالية نفسها، مما فتح شهية القائد لمزيد من التظرف :

– أو كما يزيد الحكم المباراة بضع دقائق من الوقت الضائع عندما ينتهى وقتها الأصلى، وإن كنت أنا أضيف بضعة أيام، ومن يدرى يا شيخ، ربما تسجل هدفا، أعنى طفلا، فى هذا الوقت الضائع !.

عادت قهقهات الضباط أكثر صخبا ومجونا وهم يغادرون القاعة . فى صمت التفت الطبيب إلى مريضه يدعوه إلى الجهاز، لكن الأخير أبى أن يتقدم خطوة، كانت تجتاحه سيول الغضب التى تكتسح أمامها آخر حصون العقل، هتف وهو ينتفض من قمة رأسه حتى أخمص قدميه :

– لن أغسل اليوم .. أبدا، وإذا كانت حياتى ستصبح منحة من هذا الرجل فإننى أرفضها .

صاح الطبيب : معقول أن ترفض العلاج من أجل هذا الشخص؟! إنه مجنون بالتأكيد، لا يقول ما قاله إلا إنسان مجنون،

الله وحـده – ولا أحـد سواه قـط – هو واهب الحـياة، سـبـحـانه وتعالى عن كل لغو أثيم .

– وحتى إذا نحّيت كلام هذا المجنون جانبـا، فما فائدة الغسيل اليوم، وتكون آخر مـرة ؟ تعلم جيدا أن حالتى الصحـية لا تسمح لى بالسفر إلى السعودية أو مـصر أو إلى أى بلد آخر أواصل فيه علاجى، فما قيمة أيام أعـيشـها وأنا أتوقع الموت بعدها ؟ ألم تسمع قـول ذلك المأفون أننى خـلال هذا الأسبـوع سـأكـون عائشـا فى الوقت الضائع ؟.

بحزم وتأكيد قال د. خالد :

لتـفهم أن رفـضك العلاج لن يكـون خطأ فى حق نفسك فـقط، ولكنه فى حق الله عـز وجل، إذ كـأنك تتجـاهل قـدرته، من يدرينا ماذا سيحدث خلال هذا الأسبوع ؟ واجبنا أن نأخذ بالأسباب التى فى أيدينا، ثم نترك الآتى يدبره الله بمشيئـته، ألم تقرأ أنه إذا قامت القيامة وفى يد أحد منا فسيلة فعليه أن يزرعها ؟!

بدأت الأفكار تتصادم فى رأس الشيخ، أخـيرا حزم أمره، تمتم وهو يتوجه إلى الجهاز :

– صدق الله العظيم، فـقط أدعو الله – وهذه دعوتى الأخـيرة – أن يتأخر قدوم هذا المخلوق إلى ما بعـد انتهاء غسيلى وانصرافى، حتى لا يسمعنى المزيد من كلامـه السخيف، وأيضا حتى لا أراهم وهم ينهبون ممتلكاتنا أمام أعيننا .

وقد تحققت لهذا المواطن البسيـط دعوته، فانصرف هو وطبيبه

المعالج قبل عودة الجنود والضباط الشـجعان، الذين نزعوا الجهاز الثمين ونقلوه - أو نهبوه - مع غيره من الأجهزة الشديدة الأهمية إلى سيارة نقل كانت تنتظر فى الفناء، أشـار القائد المغوار لسائق السيارة ملوحا :

- بلغ المسئولين تحياتى وقل لهم «البقية تأتى!».

غمغم د. خالد من مكانه أمام النافذة وهو يصرف بأسنانه :

- لا تكن واثقا هكذا .. فمن يدرى ؟!.

انتظمت الشاحنـات فى طابور طويل، يحوى كل ما اسـتطاعوا نقله من مـعـدات المسـتـشفـيـات والمدارس والمنشـآت والمصـانع والمكاتب الهندسـيـة ودور الحكومة .. إلـخ، وراحت تنهب الطريق صوب الحدود العراقـية . عندما وقع الزلزال الذى هز الدنيا، بدأت الحرب البـرية، لتنشق الأرض عن جحـافل القوات العـربية تدخل أرض الكويت معلنة تحريرها، الغـريب أن شراذم الجيش العراقى - الذى لم يـكن مـؤمـنا قط بأى هدف يـحـارب من أجـله - هذه الشراذم تسابقت فى رفع الرايات البيضـاء وتسليم أنفسها، وكان فى مقـدمة هؤلاء - طبـعا - سـائقو سـيارات النقل التى تحـمل المعدات المنهـوبة، من ثم استدارت السـيارات خلفا دُرْ، لتـعود من حيث جاءت .

د. خالد ملتـزم يحب عمله الإنسانى ويتفـانى فيه حقـا، عندما علم بعـودة الغنائم المسـروقـة سـعى لدى المسـئولـين لتكون للمستشفى الأولوية فى إعادة تركيب أجـهزته السليبة، وقد اكتمل

له ذلك فعلا بعد أسبوع واحد بالضبط من ذلك النهار الكئيب الذى تم فيه خلعها، وفى ذلك اليـوم دق جرس الهاتف فى منزل الشيخ مندور ، كان المتحدث هو الدكتور خالد نفسه :

– ننتظر حضورك اليوم بعد العصر لنقوم بعملية غسيل الكلى لك، هل صدقتنى الآن يا شـيخ مندور عندما قلت لك إن الله وحده – ولا أحـد سـواه قط – هـو واهب الحـيـاة ومـدبر أسـبـابهـا وتصاريفها؟.. سبحانه وتعالى عن كل لغو أثيم ..

٥

أى كـــــلام

صرخ الحاجب بنبرة متشنجة جلجلت فى أرجاء القاعة كلها : ـ محكمة.. كف الحاضرون عن همساتهم وبسط الصمت عباءته على الجمـيع فى حين قـام محام يتـحنجل كالغـراب فى ردائه الأسود حتى وقف أمـام منصة المسـتشـارين.. وبدأ يتكلم.. راح أولا يفند أدلة الاتهام دليلا وراء دليل حـتى انتهى منها جميعـا ثم أخذ بعد ذلك يقدم أدلة أخرى تؤكـد براءتى . أغلب هذه الأدلة كانت جديدة بالنسبة لى حتى إننى كنت أسمعها لأول مرة!

براءة.. يتـرافع ببراءة.. يخـتلق ببراءـة.. أطال وأطال أصابنى الملل.. خيّل إلىّ أنه سيظل يتكلم ويتكلم حتـى نهاية العالم سحبت

سمــعى وبصرى من فوق شفـتيه ورحت أفكر فى أمـور أخرى.. قطع تفكيرى صراخ الحاجب مرة ثانية بنفس النبرة المتشنجة :

– محكمة..

دخلت هيـئـة المحكمة الموقـرة بعـد أن انتهـت من مداولاتهـا.. تنحنح رئيسها تمهيدا للنطـق بالحكم.. حبست أنفاسى تماما.. فتح الرئيس فمه.. تكلم :

– ومن حـيث أنه ثبت لدينا عديد من الـظروف المخفـفة.. فـقد حكمت المحكمة على المتهم بعدم ممارسة الكلام.. أى كلام..!

وضعت يدى على فمى لأضع ضحكـة كادت تنفلت منه خشيت إن فعلت أن يظنهـا القاضى سخـرية منه، عدم الكلام؟.. وأنا الذى أنذرنى محـامىّ بتوقـيع أقصى عقـوبة.. الإعدام لقـد وعدنى بأن يبذل قصارى جهده لكنه أردف فى صراحة :

– مع ذلك الجهـد الخرافى الذى بذلته فى إعـداد الدفاع والذى سأبذله فى المرافعة ـ ومع الكثيـر من التفاؤل أيضا ـ نستطيع أن نؤمل فى تخفيف الحكم على الحبس المؤبد!.

فاق الحكم كل تفاؤل.. فأيها أهون.. حبس الجسم كله أم حبس عضو منه فقط؟.. بل إنه حتى عضو ضـئيل ليست له كبير أهمية.. بالنسبـة لى أستطيع أن أقول إنه ليـس حكما على الإطلاق.. طول عمرى لم أحب الكلام.. فى جميع المجالس ـ سواء فى العمل أو فى السـمــر ـ كنت ألزم جـانب الســمع.. مـتـابعـا أحـــاديث باقى الحاضـرين.. ونادرا مـا كنت أفكر أن أدلى بدلوى فى المناقـشات

الدائرة متمثلا بوجهة النظر التى تقول إن من يستمع يستفيد أكثر ممن يتكلم.. يا الله.. ما أسعدنى، شكرا للسماء وشكرا لك أيضا أيها القاضى النزيه.. صحت هاتفا :

- يحيا الـ..

يا إلهى.. ما هذا؟ من هذا؟!.. شخص يسد فمى بأصابع فى برودة الثلج وقوة الفولاذ!.. رد على التساؤل الذى أطال بإلحاح من عينىّ :

- هل نسيت الحكم.. إننى الموكل بتنفيذه، رفعت إصبعى أرجوه أن يسمح لى بكلمة واحدة.. فماذا سيظن القاضى بى إذا لم أوجه إليه الشكر؟.. معدوم الذوق رفض أن يسمح لى بهذه الكلمة.. شىء غريب فأنا لا أنوى قول كلام سيىء يؤذى مشاعر أحد حتى يمنعنى كلمة الشكر لا يمكن أن تكون مكروهة فى أى مجال.. هز كتفيه.. هززت كتفى أنا الآخر.. حسنا ليكن.. فليظن القاضى ما يظن.. ليس للأمر أهمية كبرى.. عموما أعتقد ـ وأرجو ـ أننى لن أراه مرة أخرى نسيت كل شىء عن القاضى والحكم والقضية بأكملها عندما رأيت ابتسامتها تضىء وجهها وتضىء ـ أيضا ـ العالم كله من حولها.. ترتدى ثوبا جميلا لم أره عليها من قبل.. خرج صوتى مليئا بشحنة من المرح والاعجاب وأنا أحييها :

- ما أروع..

لم أكمل.. فوجئت بالأصابع الفولاذية تبتر كلماتى لا.. كن لطيفا.. حتى فى تنفيذ الأحكام ينبغى أن يكون الشخص مرنا.. لقد

وقفت بجوارى طوال محنة المحاكمة.. شجعتنى دائما بابتسامتها التى كانت ترفع من معنوياتى فى أحلك الساعات، ليست كل الزوجات بمثل وفائها وصمودها.. ولا أقل من أن أجاملها مجاملة صغيرة.. رفض أن يرفع أصابعه.. أحسست بضيق شديد.. سيؤثر ذلك ولا شك فى نفسيتها.. بعد كل تضحياتها لا تسمع منى كلمة؟.. حتى إذا تركنا موضوع التضحيات جانبا فأنا أحبها.. ألا أستطيع أن أعبر عن مشاعرى؟.. عن حبى؟.. حتى لزوجتى؟ تفرح كالأطفال عندما أصف لها فى كلمات قليلة بين الحين والحين ـ حتى فى الفترة التى حجزتنى عنها القضبان ـ مكانتها فى قلبى.. تفيض من عينيها ينابيع السعادة حتى لتغرقنى من قمة رأسى حتى أخمص قدمىّ، أسقط فى يدى.. جلست بجوارها متجها ، قطع تفكيرى منظر غريب باغتنى بشدة.. طفلتى الصغيرة تنتهز فرصة انشغالنا جميعا فتفتح حقيبة أمها خلسة لتأخذ منها قطعة من الشيكولاتة.. صرخت دون وعى :

– عيب يا..

بسرعة سد فمى بيده.. التفت ناحيته والغضب يملأ نظراتى.. لكنه لا يبدو عليه أنه يأبه ولو قليلا لغضبى.. ألا يفهم ذلك الغبى؟.. صغيرتى لا تدرك أنها بهذا العمل أنها تسرق.. إذا لم ألفت نظرها وأفهمها خطأها فقد تفعل نفس الشىء مع زميلاتها فى المدرسة.. مثلا.. ولا أحد يدرى إلام ينتهى بها الأمر.. ينبغى أن اقوِّم عوجاجها من بدايته.. إنها ابنتى ولا أستطيع أن

أصمت تجاه أى هفوة لها.. مهما صغرت، لم يقصد القاضى بحكمه منعى من تربية طفلتى.. بدون شك هذا المنفذ غبى.. جاهل.. لو أنه فقط رفع يده لاستطعت اقناعه بخطئه لكنه لا يتزحزح أبدا.. ازداد ضيقى.. بل تضاعف على أننى حاولت أن أخفف عن نفسى بأن ابنتى غالبا ستعيد الكرة.. وقطعا ستلحظها أمها ذات مرة فتتولى تنبيهها للخطأ . قالت زوجتى محاولة تبديد جو الكآبة الذى سيطر على المكان :

– تصور الصدف السعيدة.. فريق نادينا سيلعب اليوم مع فريق اجنبى كبير.. ما رأيك فى مشاهدة هذه المباراة؟

لم أتحمس كثيرا لهذا الاقتراح.. وأحست هى بضيقى فاقتربت من مقعدى وراحت تربت على ذراعى وهى تكرر اقتراحها وكأنما امتص لسانها الكثير عن ضيقى فأومأت برأسى موافقا على الذهاب إلى الاستاد.

كانت زوجتى على حق.. مع لمحات الفن الجميل بدأت أنسى ما بقى فى نفسى من ضيق.. ولكن.. يا الله.. هل هذه لعبة؟.. هتفت مستنكرا :

– وحشة خا..

نسيت الحكم الشاذ.. لكن المسئول عن تنفيذه لم ينس، لم تلهه حرارة اللعب عن القيام بمهمته.. البغيضة، أيجب أن أصمت حتى هنا؟.. مجرد كلمة فى الهواء.. لن يسمعها أحد.. حتى الموجهة إليه لكنها تعبير عن رأيى فيما أرى .. ماضر هذا الرجل لو قلتها ؟

لم أحس بمتعة فى المشاهدة كتلك التى كنت أنعـم بها فى مثيلاتها هذه المباراة الهـامة إلا أن الهدف الذى أحـرزه فريقنا كان جمـيلا لدرجـة تكفى لإمتـاع أى إنسان مـهما كـانت نفسـيتـه، وانطلقت الحناجر فى هتـاف شق عنان السمـاء.. هلل الجميـع ولم أستطع ملك زمام لسانى فهللت معهم :

– هايل يا..

امتدت يده.. تصك فمى بسرعـة.. أكثر من تلك التى بها صكت الكرة الشـباك، حتى انتـصار فـريقنا لا يشفع لى فى كـلمة؟ وإذا كنت لا أستـطيع التعبـير عن سـخطى أو إعجابى.. إذا لـم أستطع إبداء رأيى فيمـا أرى ففيم بقائى؟ غادرت الملـعب وأنا أشعر بطعم المرارة فى فمـى طبعا لم يخف علـى زوجتى ما أعـانى فاقـترحت الذهاب إلى مشرب لنتناول شيئا جاء الجرسون.. قال وهو ينحنى كرقم ستة :

– أى خدمة..

لكنى لم أرفع رأسى من حيث أسندتها فـوق يدى.. ما الفائدة.. هل سيتركنى أطلب ما أريد؟.. أسرعت زوجتى تنقذ الموقف.

– اثنين ليمون من فضلك، والتفتت إلىّ وهى تردف :

– أفضل شىء يروق الدم .

كاد الكـأس يسقط من يدى.. لم أكن بللت ريقى بنقـطة واحدة بعـد، عندما رأيـته تركت الكوب بسـرعـة. هذه اللحظة انتظرتهـا طويلا.. شهورا وأسـابيع وأياما.. ساعات ودقـائق وثوانى.. مرت

علىّ محسوبة من عمرى وأنا لا أفكر إلى فى هذا اللقاء، لماذا كرهنى إلى هذه الدرجة؟.. أم لعلها رغبته فى تقديم قصة مثيرة لقرائه؟.. مع أنه كانت أمامه موضوعات أخرى أكثر إثارة وأيضا أكثر أهمية وإلحاحا.. موضوعات تهم كافة الناس الملهوفين الحائرين المتخبطين، لكنه تركها كلها وتوقف عند قضيتى يكتب فيها ويعيد، ترك هزائم يطلقون عليها نكسات ودويلات جمعت من أشتات تحتل أجزاء من دول عريقة تضرب جذورها فى أعماق التاريخ.. ترك معتقلات تحوى ألوانا من القهر والتعذيب والإذلال.. وأمسك بموضوعى.. ربما كانت أمثال هذا الموضوع هى الوحيدة التى يستطيع الخوض فيها.. بيد أنه اشتط كثيرا.. لم يكن من حقه أبدا أن يحاكمنى على صفحات جريدته ثم يصدر علىّ حكما بالإدانة.. كل يوم كان يطلع على قرائه ـ وحتى علىّ أنا ـ بتفاصيل جديدة عن حادثتى.. أو جريمتى كما أسماها، كان الأولى به أن يكون روائيا لا صحافيا.. الآن ثبت تجنيه واختلاقه وتدليسه.. ما أشد شوقى.. بل لهفتى.. لأبصق على وجهه.. لا.. لن أفعل.. يكفينى أن أسخر منه ، كانت استنتاجاتك عقيمة.. بنيت عليها توقعك الحكم بإعدامى.. بعد الحكم لى بالبراءة.. هل تعترف الآن بخطئك؟، سمعت قهقهة.. يا الله.. كنت قد نسيته.. منفذ الحكم.. أردف بسخرية بالغة :

– براءتك؟

لم أدهش لمعرفته بما يدور فى رأسى قبل أن أنطق به.. شغلتنى

دهشة أخـرى لماذا هو يسخر.. طبـعا براءة.. ألا يرانى أمامـه حرا طليـقا اذهب إلى أى مكان أشـاء.. أخـرج من الاستـاد لأجلس فى كازينو واضعا ساقا فوق سـاق.. كالعظماء؟ عدت أنساه أو أحاول نسـيانه.. لكنه أبى علـىّ ذلك، ما كـدت أخطو خطوة واحدة حـتى وجدته بجوارى.. ماذا؟.. هل ينوى أن يمارس مهمته الآن أيضا؟!. لا.. مـستـحيل.. إلا الآن.. هذا الرجل افـتـرى علىّ.. ظلمنى.. وفى وسـعى الآن أن أقـول له كنت ظـالما فى حكمك عـلىّ.. ولابد أن أقولها.. سكت فـيما مضى.. وأستطيع أن أسـكت أيضا ما بقى لى من عـمـر، لكنى لابد أن أتكلـم الآن سقـانى الـكأس تلو الكأس.. مـرتعة بالحنظل.. جـعلنى لبـانة يلوكهـا بين شـدقيـه.. وعظامى تطرقع تحت أضـراسـه.. لكنه لا يبـالى.. بل تزداد نشـوته كلمـا تضايقت، لكنى استطعت التحمل عندما منعنى حارسى من التعبير عن حبى، لكنه لن يستطيع - ولا أى كائن من كان - أن يمنعنى من التعـبيـر عن حنقى وكرهى.. من إشـفاء غليلى، نظرت إلـيه.. ربما زجـرته نظرة التـصمـيم فى عـينى.. لم يأبه لى وحـملت نظراته تصميـما أكبر.. فتحت فـمى كان مستعـدا ولذلك وجدت يده فوق شفـتى قبل أن أنطق بحرف واحـد.. لا.. إلا هذه المرة اتركنى الآن أقـول مـا أريد وأعـدك أن تكون الأخـيـرة لا أسـتـطيع أن أسكت لا أستطيع.. فوق طاقة احتمالى.. أرجوك.. أتوسل إليك.

انهمـرت دموعى.. كدت أقـبل يده.. كل هذا لم يجد مـعه.. على العكس.. ازدادت أصابعه صلابة فوق فمى، أصـبحت كقضبان من

الحديد.. مساكين اذن أولئك المصابون بعاهة البكم.. ولكن.. نعم.. يتفاهمون بالإشارة.. فلأحاول.. ربما أفلحت رفعت يدى اليسرى وبدأت أحركها.. انتهت المحاولة قبل أن تبدأ.. ورفع يده.. ليس من فوق فمى.. الأخرى وأمسك بها يدى، فكرت فى حل آخر.. الكتابة.. نفس سلاح غريمى.. قبل أن أخط حرفا رفع قدمه محاولا بها قذف القلم من يدى تشبثت به.. ازداد ضغطه.. كسر القلم.. تحولت غضبتى إليه.. أردت أن أصرخ فيه «إنك تتجاوز مهمتك».. حمدا لله إنه يعرف ما أفكر فيه.. زمجر بفظاظة :

- لم أتجاوز مهمتى.. يبدو أنك أنت الذى لم تع الحكم جيدا. ممنوع من كافة أنواع الكلام.

ارتميت فى كرسىّ وأنا أحس بالمرض يصيب كل قطعة من جسمى.. آه لو استطعت أن أفضفض بما فى نفسى.. إذن لارتحت تذكرت أمرا غريبا.. أشخاص أضناهم أشد الضنى أشياء حاولوا إخراجها فلم يستطيعوا.. تضايقوا.. عانوا.. مرضوا.. أتوا إلىّ فى العيادة.. بعد فحصهم رأيت إلى أى حد يتعذبون. أعطيت بعضهم نقطا ساعدتهم على إفراغ ما فى أنوفهم، ووضعت للبعض الآخر حبوبا سهلت لهم التخلص مما تكدس فى امعائهم استراحوا.. شفوا. وشخص آخر.. استدعانى بعد منتصف الليل.. مثانته ملأى ولا يستطيع إفراغها! كانت حالته خطيرة.. أجريت له عملية جراحية فى الحال خلصته من معاناته ولو أننى لم ألحقه فى الوقت المناسب لكان قد قضى، اندهشت من نفسى.. لماذا أتذكر كل

هؤلاء.. لا تشبه حالاتهم حالتى من قريب أو بعيد.. كان ما يضايقهم أشياء مادية.. محسوسة ملموسة.. أنا أريد أن أفرغ ما يملأ خاطرى من ملاحظات كلام.. الكلام ليس شيئا محسوسا.. الجميع يؤمنون بذلك.. وأنا أيضا.. على استعداد لتقديم مائة دليل علمى على ذلك.

أقصد كنت مستعدا لذلك حتى صباح اليوم.. قبل أن يحدث كل ما حدث طوال ذلك النهار المشحون يبدو أننى كنت مخطئا.. الجميع مخطئون وإلا.. فما هو هذا الشىء الذى يملأ فمى كله؟.. حتى الحلقوم؟.. بل إنه أخذ فى التمدد والتشعب حتى بدأ يعوق تنفسى.. رغم طعمه الكريه حاولت ابتلاعه.. لكنه لم ينبلع!.. بدأت أحس بالاختناق وكان لابد أن اتخلص من هذا الشىء أن أفرغ ما فى رأسى أن أتكلم.. حتى أستريح.

بدأت أحاول إخراج الكلمات.. باذلا كل جهدى.. اكتشفت أننى أقوى مما كنت أتصور.. كاد ضغط كلماتى يتساوى تماما مع ضغط يد حارسى، فكرت أننى لو زدت ضغطى قليلا فسأتغلب عليه.. حاولت استجمعت قواى.. لكننى لم أستطع زيادته قيد أنمله.

بين الشد والجذب.. احترق ذلك الشىء الذى كان يملأ فمى.. الكلمات.. شريط طويل من الكلمات.. بدايته عند طرف لسانى ونهايته داخل تلافيف فمى أصبح شريطا من النار كان لهيبه مروعا.. لسع لسانى وحلقى ورأسى.

بعده أخذت الأشرطة الملتهبة تترى وتتوالى، عذاب لا يمكن

تصوره.. فوق احتمال أى لسان.. رقدت فى فراشى منهارا.. لا.. لقد خدعت، غرروا بى.. وبك أيضا أيها المحامى البارع.. لم تكن تلك ظروفا مخففة أبدا.. بل لا ريب كانت ظروفا مشددة!.. فهذا الحكم أقصى من الإعدام، آمنت ساعتها أن الإنسان يساوى كلمته.. تماما.. إذا قالها استحق الحياة وإذا حرم منها كان الموت أهون.. الغريب أننى سعدت بهذا الحكم أول الأمر حيث لم أعرف فداحة ما سلبه منى إلا بعد أن جربت الحياة بدونه لمدة ساعات.

لابد أن استأنف ذلك الحكم القاسى.. لكن كيف أفعل؟.. كيف أتصل بمحاميّ؟.. ترى هل يكون فى مكتبه أم أنه الآن فى المحكمة.. يتكلم ويتكلم ويتركنى أنا هنا أحرق كلماتى وتحرقنى؟.. التليفون على مدى خطوة منى لكن حارسى إلىّ أقرب.. آه لو استطعت فقط أن أغافله دقيقة واحدة.. نصف دقيقة انحصر أملى كله للخلاص من هذا الجحيم فى كلمة واحدة أقولها لمحاميّ «استأنف» الحارس، متيقظ جدا.. لا يغفو أبدا.. آه لو فعل؟.. ولو للحظة لابد ستأتى هذه اللحظة.. ظللت أنتظرها طويلا.. عبثا خطرت لى فكرة أخرى.. كنت بطل الملاكمة طوال دراستى لماذا لم استغل امكانياتى القديمة فأصرعه؟.. سددت إليه لكمة فى جبهته.. ترنح قليلا لكنه اعتدل فى لمحة ليبادلنى أخرى وكأنما صدم رأسى جبل.. أحسست كأن شرارا يخرج من عينىّ بينما ملأ آذانى طنين مروع!..

فتحت فمى لكن يده امتدت بسرعة.. لغلقه، ومن جديد

أحسست بالشريط الملتهب يلسع رأسى.. أطول من جميع الأشرطة السابقة.. وأكثر لهيبا... عجبا.. مع أننى لم أكن مزمعا أن ألقى عليه محاضرة أو خطبة طويلة.. أو حتى أمعن فى شتمه وتوبيخه.. كنت فقط أريد أن أقول.. « آه » !.

عدت أنظر تجاه التليفون.. لم أره.. ولا أى شىء آخر على المكتب سواها.. بدت لى جميلة فاتنة.. ممتلئة بالإغراء.. مددت يدى وتناولتها.. هذه التى كانت مهمتها حتى تلك اللحظة فتح الخطابات.. وفى ثانية واحدة كانت داخل قلبه.. جاءت زوجتى مهرولة.. صرخت :

– ماذا فعلت؟!

لم أرد.. كررتها ثانية :

– ماذا فعلت؟!

لماذا لم أتكلم؟.. هل نسيت الكلام؟.. أم أننى لم أصدق نفسى لحظتها أننى أستطيعه؟.. أخذتها بين ذراعىّ.. نطقت كلمة واحدة :

– أحبك.

تنهدت.. ثم عادت تسأل بخفوت :

– لكن كيف فعلت هذا؟!

– فعلته كى أقول لك هذه الكلمة..

– لم تكن بحاجة لأن تقولها.. كان يكفينى أن أنظر فى عينيك لأتأكد منها.

– ذلك لأنك تتمتعين بحساسية وشفافية كبيرة.. هناك غيرك

أناس غلاظ - مثل الصحفى إياه وأسياده - أردت أن أقول لهم جملة معينة.. وحيث هم لا يملكون الشفافية التى تمكنهم من قراءة تلك الجملة فى عينىّ مثلك كان لابد أن انطق كى أقول لهم «أنا أرفضكم وأرفض مظالمكم».

– لكنهم سيشنقونك.. فهل تساوى هذه الكلمة حياة؟

– أحيانا تكون هناك كلمات أغلى من الحياة.

قالت وكأنها تناجى نفسها :

– يا له من ثمن باهظ.

– بل يا له من ثمن بخس!

– وأنا.. ألم أتفكر فى عذابى إذا أحرم منك؟

– سامحينى يا زوجتى العزيزة.. أعرف أننى سأسبب لك الكثير من الآلام. لكنها لا تقارن أبدا بـآلامى وأنا أنفذ ذلك الحكم الرهيب!. أحس الآن أننى انتصرت عليهم أستطيع أن أقهقه قائلا «انتهت اللعبة».

فركت عينى.. يا عجبا.. نفس القاعة.. نفس الناس.. بنفس الترتيب.. نفس الشرائط الحمراء والخضراء فوق الصدور العريضة.. نفس المنصة.. نفس الديكور.. نفس الاكسسوارات.. فما أشبه الليلة بالبارحة لا.. هناك اختلاف واحد.. أين محامىّ القصير ذو الرداء الأسود يتحنجل فيه كالغراب؟.. غير موجود.. اختلاف بسيط لكنه نفى تماما فكرة أنه شريط سينمائى لمحاكمتى الأولى هذه - لابد - محاكمتى الثانية.. والأخيرة كما أتعشم وأرجو، لفت

غياب محامىّ نظر رئيس المحكمة أيضا.. سأل بضجر :

– كدنا نتأخر.. أين محاميك؟

– لا أريد محامين.. وما الداعى؟.. أستطيع أنا أن أدافع عن نفسى.. ولن أثقل عليكم.. كل ما عندى كلمات قليلة.. فأنا كما سمعتم عنى.. لا أحب الكلام! عندما قتلت هذا الشخص لم أكن حاقدا عليه منعه أياى من الكلام.. كان مجرد أداة، كذلك فأنا لم أضبطه وهو يسرق نقودى ولم أكن واقعا تحت تأثير مخدر أو أصابتنى لوثة مفاجئة.. ولم أره مع زوجتى فى فراش واحد.. ولا هو حاول الاعتداء علىّ.. الأمر الذى جعلنى فى حالة دفاع شرعى عن النفس ولاولاولا.. أى ظرف من تلك الظروف المخففة التى قد تمنعكم من إصدار الحكم علىّ بالإعدام.

٦

هـــــذا الصـــوت

أصـــاخ السمع.. لكنه لـم يسمع شـيئـا، كـان السكوت مطبقـا بقبـضته المحكمـة على الكون بأجمعـه.. أغمض عينيـه وهو يأخذ نفسا عميقا ثم يطلقه مع تنهيدة ارتياح طويلة، أحس بالطرب.. بدا للسكون صوت يفوق فى عذوبته كـافة الأصوات! مرت اعتدال من أمامه فشعر بالنشوة وهو بعد لم يلمسها!.

لم يكن توجـسه قـد فـارقه تمامـا فعـاد يرهف سـمعـه.. لكن لا وجود لذلك الصوت على الإطلاق، هل ترك الرجل شقته.. أو أنه مـريض ؟.. بل ليـته يكون قـد مـات، ولكن لم الدهشـة ؟.. الوقت متأخر.. انتصف الليل منذ قلـيل.. فى مثل سن ذلك الرجل المتقدمة

- كما بدا من تهدج صوته - لا يستطيع الشخص إلا النوم مبكرا، وإذا فلا عليه بعد اليوم.. كلما رغب فى المجىء ينبغى أن ينتظر حتى ينتصف الليل، قال فى نفسه.

- حمداً لله أن استطعت معرفة الموعد الذى ينام فيه الرجل.. حيث يحل بعد ذلك السكون الرائع.

كان غريبا أن يذكر اسم الله فى ذلك المكان.. وذلك المجال، لكنه كان سعيدا.. جدا، كل شئ بدا لعينيه فياضا بالبهجة.. حتى اعتدال.. تراءت له أكثر جمالا وجاذبية منها فى أى وقت آخر.

حتى فى بداية تعارفهما من سنوات طويلة.. رغم شبابها النضر فى تلك الأيام.

حاول أن يعود بذاكرته إلى هذه الأيام الخوالى.. عندما كان هو بدوره يافعا أخضر العود.. لا تثقل كاهله مسئوليات من أى نوع.. وجاء به إلى هذا المنزل زميل فى نفس فرقته الدراسية.. وإن كان يكبره بأعوام، بعد عدة زيارات شعر أنه يرتاح إليها كثيرا.. حتى صار يرفض اقتراحات زملائه بزيارة صديقات أخريات.. على سبيل التغيير، ظلت اعتدال الأثيرة لديه قطعت عليه أفكاره :

- هل تريد شيئا خفيفا تأكله مع البيرة المثلجة!.

أجابها بدهشة :

- طبعا كالمعتاد.

عجبا.. ما بالها اليوم ؟.. لم تسأله هذا السؤال من قبل، كانت تعد شيئا من تلقاء نفسها برقة عطوف.. وربما لهذا تعلق بها..

أشعل سيجارة وراح يرقب دخانها يرقص رقصته الهزيلة، ترى من أخبر أمه عنها ؟.. وهى حتى من قبل أن تعلم.. كثيرا ما كانت تلح عليه أن يتزوج.. دائما تخبط كفا بكف :

– كل الشباب يتطلعون للزواج رغم صعوبة ظروفهم.. أنت جميع ظروفك مهيأه، بعد وفاة والدك وزواج شقيقتك.. أصبحت كل هذه الشقة المتسعة الأرجاء وقفا عليك وحدك.. عدا غرفتى التى لابد ستخلو بدورها يوما، حتى الشبكة.. عندما قسمت مصاغى بين بناتى احتفظت بأجمل سوار فيه لتقدمه لعروسك.

لكنه كان يرفض دائما، ولماذا يضع القيد فى يديه ؟..يأتى بمن تحاسبه حساب الملكين على أعز شئ لديه.. وقته.. وأيضا ماله، وأولاد يمرضون ويرسبون فى دراستهم.. وكلما كبروا زادت مشاكلهم، طريقه لمقر عمله يمر به أمام وزارة الخارجية مرتين فى اليوم.. ليشعر بالانقباض عند مرأى طابور المسافرين الطويل.. كالثعبان.. وكأنه يلتف حول صدره فيوشك أن يخنقه، سامحك الله ياأمى.. أمن أجل أن تفرحى بزواجى فى حفل تتيهين فيه على جارتك تلقيننى فى دوامة المسئولية.. التى ستنتهى بى حتما إلى ذلك الطابور من أجل الحصول على تليفزيون ملون وفيديو ومروحة للصغار.. أو مصاريف للدروس الخصوصية.. أو أو أو؟ تصيح اعتدال من المطبخ :

– مراد.. هل يمكن أن تعمل السلطة ؟.

– طبعا طبعا.. بكل سرور.

وترف على شفتيه ابتسامة.. طلبت منه زوجته نفس الطلب ظهر اليوم.. لكن العجيب اختلاف رد فعله.. نهر الأخيرة :

– أعود من عملى مرهقا لتطالبينى بأن أعمل معك فى المطبخ ؟.

لا.. هو لا يكره زوجته.. لكن لهجتها العصبية التى تفيض بالتبرم دائما تضايقه.. أيضا هو لم يتزوجها إلا ليرضى أمه.. خاصة بعد مرضها الشديد.. الذى بسببه زادت جرعة إلحاحها عليه، أو ربما بسبب علمها بتردده على اعتدال.. وإن رفضت أن تبوح له بمن أخبرها.

خبطت على صدرها بجزع :

– هذا أو ذاك ليس بالأمر المهم.. كل المهم أن الله لن يبارك لك فى صحتك أو مالك.. أستحلفك بالله ياابنى.. تزوج وأقلع عن الحرام.

جاءه صوتها رقيقا كالنغم :

– خلاص السلطة ؟.

– تقريبا.. لكنك نسيت الخيار.

– حالا.. سأحضره من الثلاجة.

خاب فأل أمه.. فلم يكد يمر على زواجه من هناء عام وبضعة اشهر حتى وجد نفسه لم يستطع لذلك تعليلا «من غير المعقول أن أكون قد أحببتها.. فشعورى ناحيتها لا يرقى لذلك.. أيضا لا أظن السبب هو الملل أو الرغبة فى التغيير.. فإننى طوال علاقتى

باعتدال لم أتردد على غيرها ســوى مرات قليلة وما أسرع ماكنت أعود إليها».

عمـوما لم تكن معرفـة السبب بالأمر الهـام لديه.. لذلك لم يعد يفكر فيه طويلا.. ربما كـان بسبب عبوس زوجته وبرمهـا المستمر من إرهاق يكاد يمـزقهـا بين عمل الشـركة صـباحا وعـمل المنزل مساء.. حتى تذهب إلى فـراشها أخيرا كما الخـرقة البالية، أو ربما كان بسـبب العادة.. التى جعلت من اعـتدال مايشـبه المرض الذى يسرى فى دمه، أو ربما هى طبيعة التحدى التى خلق عليها.. والتى تجعله مـثل العصـفور.. لا يفكر فى ترك قفـصه مـادام كان بابه مفتوحا.. أما إذا وضع فى قـفص محكم الإغلاق فإنه يظل يتحرق شوقـا للهرب منه.. ولا يـهدأ له بال حتـى يفعل، أو غيـر ذلك من الأسباب!.

أغرب مافى الأمر أن سـعادته ومتعته بهـذه الزيارات أصبحت أكثر وأشمل مما كانت قبل زواجه.. بل راحت تكبر وتتزايد وتتسع مع الأيام.

حتى كـانت تلك الزيارة من نحو شـهرين.. عندمـا فوجئ وهو فى قمة نشوته بذلك الصوت العالى.. نظر إليها متسائلا فردت :

– إنه المستأجر الجديد للشقة المجاورة.. خلت من أسبوع بوفاة قاطنتها السابقة دون وريث.

ضايقه الصوت.. كثيـرا، أحس كانه يضغط على أعصابه.. لكنه حاول أن يتـماسك.. تكرر الأمر بعد ذلـك فى كل ليلة حضر فيـها

لملاقاة اعتدال، وفى كل مرة كـان ضيقه وعصبيتـه يتضاعف أكثر وأكثر.. حتى كانت آخر زيارة لـه فى الأسبوع الماضى.. شعر كأن صوتاً يتـخلل مسام جلده ثم شحـمه ولحمه وعظامـه حتى يصل إلى النخاع فيلسعه!، حقا أنجـز ماجاء من أجله ولكن كيف ؟.. كما الآلة.. لا.. يتكلف فـى حضـوره مـشـاقـا وصـعـابا كى يسـعـد ويستمتع.. لا لكى يضيق ويتعذب.

لذلك كان تردده هذه الليلة.. ظل طيلة المساء يقدم رجلا ويؤخر أخرى.. يـزمع ثم يعدل.. أكـثر من مـرة، حتى حـزم أمره أخـيرا وجاء.. لكنه فى تردده ذاك أضـاع جزءا كبيـرا من المساء.. وصل بعـد انتصـاف الليل.. عندمـا كان المقـهى بأسـفل المنزل يلفظ من أحشائه آخر زبائنه. لكن تأخره هذا لا يفـسر أبدا ما دهى اعتدال.. شـخصت إليـه أولا بقلق.. ثم نظرت إلى سـاعة يديهـا.. وأخيـرا سمـحت له بالدخول.. لكن دون ترحيـبها المعـتاد، لم يكن غبـيا.. ما كادت تنطق جملتها الأولى حتى استطاع أن يتكهن بما هنالك :

– أرجو ألا تستغرق وقتا طويلا.

– هه؟؟!!.

– أ.. طبعا.. أقصد يعنى.. الوقت متأخر جدا.. كما تدرك.. وكان طبعا يدرك.. طبيـعة مهنتها، مع ذلك لم، يستطع مـنع هزة المباغته استنتج أنها تنتظر زائرا آخر اقترب موعد حضوره.

القى كل هذه الأفكار خلف ظهره عندما تنبه فجأة إلى السكون الهـائل يغلف المكان، لأول مـرة منذ أسـابيع عـديدة يتـواجـد فى

مسكن اعـتدال دون أن يلفهمـا – من قمة رأسـيهما حـتى أخمص أقدامهمـا – صوت جارهما العالى، شعر بالخـفة والنشـاط.. حتى راح يطلق بفمه صفير لحن شائع وهو يقطع خضراوات السلاطة، لكنه سرعان ما كف عن الصفـير.. عاد وعز عليه أن يعكر أى شئ صفو ذلك السكون الرائع المنشود.

انتهيا من الشراب فانتقـلا إلى غرفة النوم.. بدأ يخلع جاكتته.. فجأة.. ارتفع الصوت المعهود.. صرخ :

– لا.. ليس الآن.

راح الصوت يرتفع ويرتفع.. ليـفجر كل خـلاياه بآلام ادخرها طويلا فى دهاليز أعـماقه المظلمة.. ثم يوالى الارتفـاع حتى أصبح جهيرا جدا.. هتف :

– أين التليـفـون ؟.. سـأطلب شـرطـة النجـدة..الميكروفـونات ممنوعـة بعد الحـادية عـشرة، يعـتمـد على أنه يتلو القـرآن.. لكن القانون هو القانون مهما كانت ماهية ما يقرأ.

أسرعت تخطف السماعة من يده :

– عم تتحـدث ؟.. لا يوجد أية ميكـروفونات على الإطلاق.. بل إننى – بعـد أن أغلقت زجـاج النافـذة – أصـبحت أسـمع صـوت الشيخ خافتا جدا.

بهت.. لماذا يسمـعه إذا عاليا بهـذه الدرجة ؟.. شعر كـأن أذنيه راحتا تكبران وتكبران حتى أصبحتا فى حجم المقطفين.. وقد ركب فى كل منهما سماعة تضخم أكثر الأصوات خفوتا.

بل شعـر كأن حواسه الأربع البـاقية قد تحـولت جميعـها إلى آذان.. فعندما رقت اعـتدال لانفعاله وأحضرت له كوبـا من عصير الليمون ليخفف عنه إذا به يحس على لسانه طعم ذلك الصوت بدلا من طعم الليمـون! مع مرور الدقـائق بدأت عدوى الانفعـال تنتقل لاعتـدال.. فحـاولت. أن تسـاعده كى ينتـهى من مهـمتـه.. خلعت رداءها ليظهر من تحته ذراعاها وصـدرها الناهد فى غلالة شفافة فاتنة مغرية إلى أقصى الحدود.. لكنه بدلا من رؤية جسدها البض رأى ذلك الصـوت!. أسرعت إلى صـوانها تخـرج قنينة من العطر الجذاب المثيـر.. لكن أنفه لم يلتقط شذى العطر.. أحـس أنه يتشمم ذلك الصوت!. اقتـربت تلتصق به.. فمد يده يربت على كتـفها فى اعتذار.. فأحس كأنه أيضا يلمس ذلك الصوت!!.

رويدا بدأ يحس كأن الـصوت قد تحـول إلى سوط.. راح يلهب رأسه ووجهـه وجميع أعضائه بلسعـات متتالية.. لم يملك أمـامها سـوى الفرار ولكن.. يـا للعجب.. الفـرار من الصـوت.. إلى نفس الصوت!.

وجد نفـسه يدفع باب شقـة الجار الموارب.. ليلقى بنفـسه عند قـدمى الـرجل الضـرير.. الذى كـان يتلو القـرآن فى هـدأة الليل بصوت عذب رخيم، قال مراد من بين دموعه التى أغرقت وجهه:

– جئت أتوب على يديك أيها الشيخ الجليل..

٧

سرقوها أيضا

أمسكت الحقيبة بحنان كأنها تمسك وليدها، وهى فعلا كانت تحوى ما هو فى حكم الوليد.. بعض نسخ ديوانها الأول، حصيلة حب وحماسة.. محاولات وتجارب.. جهد ومعاناة.. اطلاع ودراسة.. دأب وإصرار، رحلة كفاح مرير ولذيذ.. استغرقت من عمرها ما يقرب من خمسة عشر عاما، حيث أحبت الشعر وتعلقت به وهى بعد طالبة فى المرحلة الثانوية، وما أكثر ما نشرت بعض قصائدها فى مجلات الحائط، ثم تقدمت خطوة.. عندما اعترف مدرس اللغة العربية لفصلها بموهبتها.. فبدأت تلقى أشعارها بنفسها فى حفلات السمر وأمسيات الشعر بالمدرسة.

وكم نالت أيامـها من الإعجـاب.. بشعرها وإلقـائها.. وحـسنها أيضا، كأنهـا زهرة بدأت أكمامها فى التـفتح، من يراها لأول مرة لابد سيتصور أنها فنانة، جميلة رقـيقة تهمس الكلمات فى حديثها كما لو كانت بلبلا يغرد!.. فجأة أحس أستاذها الذى تبنى موهبتها أن أشعارها أصبحت أكثر دفئا وعمقا، ضحكت وهى تسمعه يقرر « لا شىء ينضج موهبـة الشاعر سوى أمرين. أن يقـع هو نفسه فى الحب.. أو بلده فى حرب! » كيف لا تضـحك وتخمينه كان فى محله؟.

فعـلا وقعت «هالة فى حب «طاهر»، قـريب لأسرتها من بعـيد لكنه كـان غائبـا لمدة سنوات فى الخـارج.. حيث يعـمل فى السلك الدبلوماسى، والذى تقضى قوانينه أن يعـمل المبعوث فى بلده عدة سنوات توازى عـمله خارجهـا، ليكتشف فـجأة كم هو عـزيز جدا على قلبـه.. الحاج بدوى.. والد «هالة»، من ثم أصـبح يزورهم كل بضعة أيام!.

فى بعض الأحيان يصاب كيوبيد بالحول.. فيبعث بالقلوب بغير نظام، لكنه هذه المرة كان متقنا لعمله.. أصاب الاثنين بسهم واحد، ثم لم ينفض يده.. بل استـمر فى تثبيتـه داخل قلبيهمـا عاما وراء عام، زورق الحب يسير رقيقـا هينا. فالزوابع القليلة التى صادفته لم تكن شـديدة العـصف.. لذلك زادتـه ثبـاتا بدلا من أن تقلبـه.. ليزداد شعر «هالة» عذوبة وصدقا فى التعبير.

ثم يقع الشق الثانى من حديث الأستاذ لتلميذته، لا.. لم يشتبك

بلدها ـ الكويت ـ فى الحرب، لكن ما الفرق ؟.. العراق دولة شقيقة وجارة.. عربية مسلمة، لذا كان انفعالها صادقا.. من القلب، الأمر الذى انعكس على قصائدها.. فأصبحت تمتلىء بالتعاطف والمعاناة، كتبت وكتبت تمجد العراق وتنتصر له، قصائد حماسية.. لكنها فى نفس الوقت عميقة موحية.. أعجب بها كل من سمعها أو قرأها، نعم.. فهى قد بدأت تنشر مقطوعات من شعرها فى بعض الجرائد والمجلات بالكويت، بل أيضا فى مصر وبعض البلاد العربية الأخرى.

هل أصابها ذلك بالغرور كما قالت أمها؟ إطلاقا.. لم يكن غرورا أبدا عندما طلبت مهلة للتفكير حين تقدم طاهر لخطبتها، طبعا كانت الأسرة بأجمعها على حق حين أدهشهم هذا الطلب.. فالكل يعلم إلى أى حد هى متعلقة به، شيئان لا يمكن إخفاؤهما أبدا.. النار و.. الحب، فألسنة النار تظهر من على بعد كيلومترات، والحب؟.. أكثر ظهورا.. إنه يلمع فى العيون.. يرتعش على الشفاه.. يخفق فوق الصدور، يلون الخدود.. يذبذب الصوت.. يذود النوم، لذلك كانت الدهشة لردها، بيد أن عمتها هبت للدفاع عنها :

– ولم لا؟.. حقها أن تعزز نفسها، وإلا فهل تريدونها أن تبدى لهفتها عليه؟.

واضطرت هالة أن تصحح:

– ما إلى هذا قصدت أبدا، كل الأمر أننى متحيرة.. فبعدما حققته فى هوايتى حتى اعترفت الأوساط الأدبية بى كشاعرة..

أخـشى أن يقف طاهر.. أو الزواج عمـومـا فى طريق مسـتقـبلى الأدبى.

شهـقت الأم : مستقـبلك الأدبى؟! يبدو أن مجـرد نشرك بضع قصائد فى مجـلات ـ لا تجد ما تسود به صفحـاتها ـ قد أصابك بالغرور حتى حسبت نفسك باحثة البادية!!..

وانهمرت دموعها : لم أقل ذلك قط.. أعرف أننى مازلت فى أول الطريق، لكن حـبى للشـعر ـ وحـتى لو لم يعـجبكم هذا ـ يفـوق رغبتى فى تحقيق أى أمل آخر!..

عند ذلك، كانت خـبطة الأم على صدرها هى التـعليق المناسب.. أو الرد الوحيد على هذه الترهات!.

رغم أنها أحبت الاثنين على قدر المساواة.. الشعر وطاهر.. فإن كفة طاهر تغلـبت فى النهاية، لسبب بسيط.. وقـوف الأسرة كلها إلى جانبه، أما الشعـر المسكين فلم يقف فى صفه أحد.. اللهم إلا.. طاهر نفســه! فى أحد اللقاءات الأسرية تقـابلا.. عندما رآها أحس بمئـات الورود والأزاهير تتـفـتح فى قلبـه.. وبدأت عيـونه ترسل وتستـقبل.. دقات قلبـها التى أفلتت منهـا وسبقـتها إليـه، تحدثا.. وتفـاهمـا.. أكد لهـا أن قلبـه لن يطاوعـه أبدا على وأد ـ أو حـتى الوقوف فى وجه ـ موهبة جميلة رقيقة بدأت تتفتح، على العكس.. وعدها بحرارة أنه سيـقف إلى جوار هوايتها المحببة وسـيساعدها بقدر ما يستطيع، عواطفه المتوهجـة أعادت صياغة قرارها.. وافقت على الخطبة فورا بكل ترحاب!.

بعد الزواج نقل طاهر للعمل فى سفارتهم بباريس، وهناك وفّى بوعده فعلا وراح يصحبـها إلى بعض الندوات الأدبية والأمسيات الشعرية التى كانت تقـيمها الجاليات العربية هناك، كـما استمرت أيضـا فى مـراسلة المجـلات فى وطنهـا وبعض البـلاد العـربيـة الأخرى.. ومدها بقصائدها التى لقـيت دائما الإعجاب والترحيب.. من ثم النشـر رغم ذلك لم تكن راضيـة تماما.. ظل حلمـها الأكـبر يداعب تفكيرها فى الصحو والمنام.. ديوان خاص بها ولكن.. كيف السبيل؟.

كانت تستطيع أن تنشره على نفقـتها لكنها رفضت ذلك، إنه قد يعنى عدم اقتناع دور النشر بموهبتهـا وقيمة أشعارها، الأمنية أن تقوم بذلك دار نشر محترمة كى تؤكـد للجميع - ولنفسها قبلهم - أن قصـائدهم فعلا مـتميـزة.. حتى تجد من يدفع فـيها ويتـحمل مسئولية تقديمها للقراء.

أخيرا.. أخـيرا جدا تجدها، شـاعرة مترجمـة لبنانية تمتلك دارا للنشر فى باريس بدأت تتـابعها، إنها دائما مـتواجدة فى كل ندوة تلقى فيها.. تسأل بعض معـارفها عن أخبارها.. تطلب منهم مزيدا من المجلات التى نشـرت قصائد لهـا، وقلب هالة يدق.. انتظارا لما سيتمخض عنه هذا الاهتـمام.. سلبا أو ايجابا، انتظارها لا يطول.. ذات يوم دق تليفونها ليحمل إليها الـنبأ السعيد.. الناشرة العظيمة تطلب التعاقد مـعها، ثم جاءتها تحمل التفـاصيل.. الديوان سيطبع طباعـة فاخرة مكونا من جـزءين.. الأشعـار بلغتهـا فى جزء.. ثم

مترجمة إلى الفرنسية فى الجزء الآخر!.

أمسكت القلم لتوقع العقد وهى لا تكاد تصدق نفسها.. أغمضت عينيها ضنينة على اللحظة أن تنتهى سريعا.. تمنت أن يقرصها أحد حتى تتأكد أنها لا تحلم.. وطاهر يضحك سعيدا :

– ألم أقل لك؟ هذا فقط أول الغيث!

الناشرة تنبهها : لا تتوقعى أن يتم ذلك بين يوم وليلة.. الترجمة تستغرق وقتا، عدا أن كل شىء فى دارنا يسير بالدور.

هتفت بسعادة : لا بأس.. كل آت قريب.

الأخبار باستمرار تتوالى.. سعيدة مبهجة، المترجم المستشرق بدأ فعلا العمل.. انتهى من بعض القصائد.. تمت ترجمة نصف قصائد الديوان، انتهت الترجمة وبدأت إجراءات الطبع.. الخ.. الخ.

ذات صباح كئيب فوجئت ـ وفوجىء العالم كله معها ـ بالخبر المذهل، العراق تغزو الكويت وتحتلها بالكامل!! كمن ضرب على أم رأسه راحت تدور حول نفسها وهى لا تكاد تعى فحوى الخبر، لابد هى واقعة تحت كابوس رهيب وسريعا سوف تفيق منه، لكن للأسف.. الحقائق عنيدة.. كالصخور الصلدة، ما حدث قد حدث، وبكت بحرقة.. بل أوشكت على الانهيار بعض الأصدقاء قالوا لها :

– حمدا لله أن وقع ذلك وأنت بعيدة عن الأحداث الفظيعة للغزو الغاشم.

فتهمهم من بين دموعها :

ـ بل أكاد ـ من فرط اللهفة ـ أتمنى لو كنت هناك.. لأطمئن على

أسرتى وأحبائى، أن يقع مكروه لوطن شخص وهو غائب عنه.. عذاب لا يقل.. بل ربما يزيد.. على عذاب من قاسى الغزو واكتوى بلهيبه!

فى أول سبتمبر.. بعد شهر من العدوان حلت إجازة طاهر السنوية، كانا قد تعودا على قضاء جزء منها فى القاهرة.. حيث تلتقى بأكبر عدد من أفراد أسرتها اعتادوا بدورهم قضاء إجازاتهم هناك، وهى قد علمت من اتصالاتها أن أغلبهم فى القاهرة فعلا، البعض كان هناك من قبل الغزو.. والبعض الآخر هرب إليها فرارا من أهوال المعتدين التى يمارسونها هناك، بل شاركهم التنكيل بعض الذين كانوا بها لاجئين مستضعفين.. فإذا بهم مع التيار ينقلبون إلى فراعين ضارين!.

قبل السفر بيوم واحد جاءها مندوب من دار النشر يحمل إليها هدية الدار.. خمسين نسخة مغلفة تغليفا فاخرا من ديوانها المنتظر، أمسكت الحقيبة التى تحوى النسخ وكأنها تمسك بوليدها.. وهو فعلا كان كذلك!.

فى القاهرة نزلت الفندق الذى تجمع به غالبية الكواية هناك، كان من بينهم شقيقتاها وأولادهما.. وشقيقها وزوجته.. وخالتها وأولادها.. وابنتا عمها.. وبنت خالتها وزوجها الخ الخ، عدا الكثير من الجارات والصديقات، اتصلت بها خالتها فور وصولها.. وأبلغتها أن جميع القريبات يردن رؤيتها، وأنها حددت لهن عصر نفس اليوم فى إحدى قاعات الفندق.

لفرط لهفتها على اللقاء حضرت قبل الموعد.. وهى تحمل كنزها.. حقيبة النسخ الغالية.. كى توزعها عليهم، لكنها كانت تود أن تجعل الأمر مفاجأة.. لهذا أخفت الحقيبة خلف المقعد الذى تجلس عليه، بعد دقائق بدأ حضور القريبات والأقرباء يتوالى، أهم من تود لقاءهن شقيقتها الكبرى وابنة خالها، سخرت الأخيرة من هوايتها.. ولم تصدق أبدا موهبتها.. بل اتهمتها بالادعاء! على العكس منها على طول الخط كانت الشقيقة الكبرى.. وثقت بمقدرتها الفنية تماما وشجعتها بكل طاقتها، لذلك فحديثها سيكون موجها بالأكثر لكلتيهما، تريد أن تقول لشقيقتها « ها أنذا كنت عند حسن ظنك بى ولم أخيب أملك فى ». كما ستكون رسالتها للقريبة الأخرى رسالة تحد «أنكرت علىّ موهبتى.. فما رأيك الآن وأنا أضع تحت أنفك الدليل عليها ؟!».

عندما أكتمل الجمع بدأت هالة الحديث عن غزوها للعالم الأدبى فى باريس.. حتى بدأت تلفت أنظار الناشرة الكبيرة.. من ثم عكفت على تتبعها الخ الخ، الأحداث تزدحم على شفتيها وكأنها تتبارى فى أيها يخرج أولا، صمتت قليلا لترتب أفكارها وتلتقط أنفاسها.. فى أثناء ذلك رنت منها نظرة إلى وجوه الحاضرين لتلمح عجبا.. الوجوم يغلف كافة الوجوه وهم ينظرون إليها بعيون مفتوحة على آخرها.. تنطلق منها سهام الدهشة والاستغراب وعلامات الاستفهام.. كأنهم يرون أمامهم مخلوقا غريبا هبط عليهم من المريخ أو أحد الكواكب الأخرى البعيدة، مخلوقا يتحدث لغة غير

معـروفة ولا مـفهومـة.. ولم يسمع بهـا أحد من قبـل قط.. حتى راحت كلماتها ترتد إليها ميتة دون صدى!.

لم تكن هالة غـبيـة.. أبدا، للحـال فهـمت السـبب، نكبة الغـزو المخـيمـة عليـهم جـعلت آمال الجـمـيع تشيـخ فى قلوبهم.. لذلك يندهشون أن توجـد مواطنة لهم تستطـيع أن تفكر فى شىء آخر سـواه، بل من يدرى.. ربمـا اتهـمـوها بينهم وبيـن أنفسـهم أن وجودها فى باريس قـد أضعف من انتمائهـا وبالتالى إحسـاسـها بالكارثة.. رغم أن هذا غيـر صحيح على الإطلاق، فـالإنسان ـ أى إنسان ـ لا ينسى وطنـه بالبعد عنه.. إنه يحـمله معه.. فى أعـماق وجدانه.. أينما ذهب، وإحـساسها بالمرارة لاجـتياح بلدها.. لا يقل عن إحساس أى مواطنة أخرى، بل إنها لتذكر كيف كان حزنها هى على البعد أكبر، وكل الأمر أنها عمـدت إلى محاصرة كافة مشاعر المرارة داخل جزء قصى مغلق من قلبـها.. فى إجازة لعدة دقائق.. حاولـت أن تسبح فـيها ضـد الأحزان.. كى تحكـى لاحبائهـا عن تحقيق حلمها!

بالتأكـيد جانـب حديثهـا الكياسة.. نسـيت نفسـها.. وظروف أسرتها.. وبلدها كله.. فى لحظة جنون مؤقـتة.. جنون الشعر، دار كل ذلك بخلدهـا فى ثوان مـعـدودة، وفـورا تداركت شطحـتـهـا الغريبة.. فـاستطردت تكمل ـ وهى تحمد الله أنها كـانت قد أخفت حقـيبة النسـخ قبل حضـور القريبات : كـانت تلك أخبـارى حتى حادث الغـزو المشئوم.. الذى زلزلنا جـميعا لـدرجة لم نعد معـها نفكر بأى شىء آخر.

عند ذلك فقط دبت الروح فى التماثيل الشمعية المتجمدة المحيطة بهـا، وأقبـلوا عليهـا يســألونهـا عن ردود الأفـعال فى الخـارج.. والتوقعات فى نظر رجال الســياسة بالغرب عن الحرب أو الحلول السلمية الخ الخ..

لم تكد تمر دقائق حـتى حضر مـندوب عن السفارة الكويتـية، وفى يده كشف بأسماء مواطنيه المقيمين بالقاهرة.. ليسأل كل فرد منهم عن مـشاكله وطلبـاته وظروفه، أولى المتـحدثات كـانت ابنة خالها.. التى فقدت زوجها.. أطلق عـليه المعتدون الرصاص لدفاعه عن كرامــة أمه.. التى ركلهـا أحدهم بقـدمه، الثـانية كـانت زوجة شقـيقهـا التى مات طفلهـا عطشا أثناء هروبهم فى الصــحراء، ثم خالتها التى ضاعت عليها كل ثروتها.. حيث كانت مودعة فى البنك الذى نهبوه، ثم شقيقتها التى سرقوا منها مجوهراتها أثناء السفر، حتى الشقيـقة الصغرى.. سرق جارها الفلسطينـى سيارتها عنوة وتركها تسير مسافات على قـدميها.. حتى وجدت أسرة قريب لها مسافرة فحضرت معـهم، طبعا لم يناد المسئول على «هالة».. لعدم وجود اسمــها فى الدفتر الذى معه، رغم أنهـا بدورها قد تعرضت للسرقة.. بل للاغتيال، تمتمت وهى تأخذ حقيبتها وتتسلل بها :

– بجانـب كل ما فعلـوه ببلدى وأقربائى.. فـهم أيضا اغـتالوا فرحـتى.. بحلم استغـرق تحقـيقه خـمسة عـشر عامـا كاملة من حياتى.

٨

كل فى طريق

خرجا سويا من سراى النيابة، لكن لأول مرة لم تكن وجهتهما واحدة، مضى كل فى طريق، لم يعد ممكنا أن يظلا معا فى السفينة بعد أن انكسرت دفتها، قالت له جملة واحدة قبل أن تعطيه ظهرها.

- عندما تستخرج القسيمة.. سلمها لأخى مختار.

حمدت الله أن لم تخنها شجاعتها.. التى مكنتها أن تجعل من أهدابها قضبانا حبست خلفها دموعها، ولو أنها لم تستطع ذلك وتركتها تسيل.. لما لامها أحد، فعشرون عاما من العشرة والحب والتفاهم.. تستحق نهرا من الدموع، كما أن النهاية - التى جاءت

على أهون سبب ـ لم تكن أبدا متوقعة.. من ناحيـتها كان ضميرها مستريحا.

لم يكن باستطاعتـها منع وقوعها، أو للدقـة.. لم تكن تستطيع ذلك إلا بتضحية فوق قدرتها.. بل قدرة أى بشر، هو كان يستطيع إبعاد شـبح الفراق الرهيب مقابل تضـحية بسيطة.. بسـيطة جدا، لكنه ركب رأسه، قال لها قبل الذهاب إلى النيابة :

– تذكرى.. أنت التى اخترت.

تمتمت لنفسها : غير صحيح.. بل أنت الذى اخترت!

رد مـحتـدا : كـيف ذلك؟.. إنك تقلبـين الأمـور.. لم تكونى قط هكذا.. الحقيقة فى جانبى وأنت تزعمين العكس.

ظلت شفتاه تبعثران الكلمات.. قاطعته بإشارة من يدها :

– كفى.. تناقشنا بما فـيه الكفاية.. ولا أجد داعيـا لكلمة واحدة زيادة.

يقولون أنه كما يصنع الأمل القوة.. يصنعها اليأس، سارت من أمامه مرفـوعة الرأس، كانت الحقيقة فى جانبـه فعلا ولكن.. متى كان الآدميون أرقاما تخضع للمعدلات؟، لحق بهـا شقيقها مختار.. مد ذراعه تحيط كتفها وهو يقول بتأثر شديد :

– لا تتصورين كم أنا آسف حزين، نحن السبب.. ليتنا ما سكنا فى نفس عمارتكم التى...

قاطعته : لا تحمل نفـسك ذنوب الدنيا، إنه قدر مكتوب.. تعرف إننى أؤمن بالقسمة والنصيب.

تنهد : حسنا.. طبعا ستأتين معى، وأنت تعلمين قدر معزتك عندى.. ومنذ..

قاطعته مرة أخرى : مستحيل قطعا، إن منزلك آخر مكان أذهب إليه، لا أريد أن أسكن مع توفيق فى عمارة واحدة.. التقى وإياه على الباب أو فى المصعد أو أو، عدا أن إقامتى لديك تعنى أننى أتقاضى ثمن وقوفى بجوار ابنك.. وهذا ما لا أقبله على الإطلاق، سأسافر لدى خالتى فى الإسماعيلية.. بعد أن أطلب نقلى إلى فرع شركتنا هناك.

فى القطار أفرجت فوزية عن دموعها فتركتها تسيل.. راسمة على خديها علامات استفهام كبيرة.. ظلت تتكاثر وتتوحش حتى كادت تفترسها لماذا يا توفيق هان عليك حبنا؟.. كيف طاوعك قلبك أن تمد أصابعك لتلفها حول عنق هذا الحب؟.. لماذا كانت كراهيتك لأخى وأولاده أقوى من حبك لى.. لدرجة جعلتك تحول ذلك الحب إلى وقود ذكيت به نار تلك الكراهية؟!

وإذا كان شقيقها قد قال لها عند خروجهم من مقر النيابة، ليتنا ما انتقلنا للسكن معكم، فهى قد قالت لنفسها هذه الجملة أكثر من مائة مرة خلال الفترة الأخيرة، حيث قبل ذلك الانتقال.. كانت حياتها مع توفيق سيمفونية حب سارت بذكرها الركبان، سيمفونية ظنتها أبدية.. ستظل حتى نهاية الحياة، فى الأسابيع الأخيرة تحولت تلك السيمفونية إلى نغم نشاز.. تعزفه أصابع عازف مبتدىء.

الغريب أنه كان بينهما كل ذلك الحب رغم عدم إنجابها، لدرجة أنه عندما نصحتهما شقيقة فوزية بالذهاب إلى طبيب كبير رفضا، وكان رفض توفيق أكثر صلابة.. قال لزوجته :

– أحدنا بلا شك هو المسئول.. لكننا لا نعرف من بالتحديد، ذهابنا إلى الطبيب سيدلنا أين العيب، وهذا ما سيجعله يشعر بانكسار.. وربما أحس أن رفيقه يمن عليه بالبقاء معه، وهى أمور قد تؤثر على حبنا، الأفضل اذن أن نظل على جهلنا.. حتى نحمى ذلك الحب العظيم الغالى من أية أعاصير!.

طوقها بحنان وهو يردف : ثم ما أهمية أن يكون لنا أولاد؟ بالنسبة لى شخصيا لا أهمية.. بعد أن أصبحت أنت كل العالم.. عالمى أنا على الأقل!.

حتى وقع ذلك الحدث الذى بدا لها فى حينه مفعما بالبهجة والسعادة، خلت احدى شقق الطابق الثانى من عمارتهم بانتقال سكانها إلى فيلا أنيقة شيدوها، ومن منطلق عدم احتياجهم كان «الخلو» الذى طلبوه ضئيلا للغاية.. مبلغ الفى جنيه فقط! وما أسرع ما نقلت فوزية الأمر لشقيقها.. الذى كان يعانى من ضيق شقته.. والذى كانت معاناته تلك تزداد باستمرار مع نمو أولاده لذلك وجد فى الشقة التى خلت لقطة من السماء، وفى أيام كان قد جاء وعاين.. وتعاقد ودفع ونقل أثاثه وأسرته! كيف إذن لا يكون حدثا سارا بهيجا وشقيقها الوحيد وأولاده ـ الذين يعوضونها حرمانها الإنجاب ـ سيقطنون معها.. فى الطابق الذى يعلوها تماما؟.

الغـريب أن توفـيق لم يـكن أقل منهـا سـعـادة بذلك الجـوار، ولو أنها أحسـت عكس ذلك لما سعت إليه، فلا أحـد ـ حتى لو كان ملاكا ـ يحل مـشكلة شقيقه على حـساب سعادته هو الشخـصية وأمنه واستـقراره، كل الدلائل السابقـة تؤكد إعزاز توفيق لمخـتار وأولاده، عندما يزورونهم كان يرحب بهم أشـد الترحاب.. ويطلب بنفـسه من زوجـتـه أن تقدم لهم مـا لذ وطاب لديهم من فـاكهـة أو حلوى، ثم ما أسرع ما يفكر فى رد الزيارة.. مـحملا بالهدايا.. إذا صادفت تلك الزيارة مناسبة سـارة.. نجاح أحد الأولاد أو عيد ميـلاده الخ الخ، رغم علمه وتأكده التـام بأن هذه الهدايا لن ترد.. على الإطلاق، وكم أسعد ذلك فوزية.. وشـعرت من أجله بالامتنان لزوجها.. الرجل الشهم الكريم. فما الذى حدث بعد ذلك؟.

يبدو أن الأجداد كانوا مـحقين فى أمثالهم الشـعبية، الشىء إذا زاد عن حده.. انقلب إلى ضـده!، سعيد بنسيـبه.. نعم، فى زيارات متباعـدة وأوقات محدودة.. ساعة أو بضع سـاعات.. ينصرف كل بعدها لحياته وخـصوصياته، طبعا الأولاد الصغـار لا يستطيعون إدراك هذا، يقـبلون بتلقـائيـة علـى من يقـدم الحب والهـدايا، لا يعرفون لهذا الإقبال حدودا يقفون عندها، ساعدهم على الإفراط فى ذلك قرب الشقة وسهولة الاتصال.

ويبدأ توفـيق يضيق بما أسـماه حصـارا أو غزوا لحـياته! هل كـانت مرارة منه أنه فى حـين حـرم حتى من طفل واحـد.. هناك غيـره يرزق بخمـسة؟ أم أنه اعـتاد الهـدوء التام حتـى أصبح أى

صوت يخدش هذا الصمت يزعجه، أم هي غيرة أن يجد فوزية منصرفة بكليتها إلى أولاد شقيقها.. حتى كاد يحسها قد تبخرت من بين يديه؟!.

ربما كانت الأخيرة، ففوزية ـ دون أن تدرك ـ عمقت بتصرفاتها هذا الشعور لديه.. أن شقيقها وأولاده قد اغتالوا حقه فى قلبها!، أكثر من مرة عاد إلى المنزل ليجدها فوق.. عند شقيقها.. تذاكر لأولاده، أكثر من مرة استيقظ من نومه عصرا.. ليجد فوزية مع إحدى بنات شقيقها تفصل لها فستانا أو بلوزة! أكثر من مرة اضطر أن يأوى إلى فراشه وحيدا.. لأن زوجته تلازم ابن شقيقها المريض كى تعطيه القرص أو الحقنة فى موعدها!، أكثر من مرة استأذنته فى الخروج مع ابنتى شقيقها لتشترى لهما بعض متطلباتهما الصغيرة!، وأمهم؟.. مشغولة بالطفل الصغير.. لا تتمتع بذوق فوزية الراقى فى اختيار المشتريات.. لا تجيد الانجليزية حتى تستطيع أن تدرس لأولادها، أية حجة تجعل من زوجته.. الوحيدة على وجه الأرض التى تستطيع تلبية رغبات أو احتياجات هؤلاء الأولاد!، احتياجات لا تنتهى.. ولا يبدو فى الأفق أنها ستنتهى يوما ما!.

فوزية كانت تفعل كل هذا بتلقائية وحسن نية، فقد تيقن فى نفسها أن زوجها لا يمكن أن يحتاجها أو يتطلب وجودها إلى جواره طوال اليوم، كما لم يعن هذا فى تفكيرها أنها تفضل أولاد شقيقها عليه، بل حتى لم تتصور قط أن توفيق يمكن أن يراوده

هذا الظن، لكنه دون أن تشعر - وربما دون أن يشعر هو نفسه - بدأ يعانى هذا الإحساس شيئا فشيئا وعلى مهل.. حتى تشبعت نفسيته، به فكانت الثورة.. التى شملت كل شيء، حتى لقاءهما آخر الليل.. كأنما فوق فراش مبطن بالمشاكل!، وتدهش فوزية.. كيف يغضب وكان يسعد؟ كيف يضن وكان يسخو؟، كيف يضيق وكان يرحب؟

وتبدأ فوزية تحاول التقليل من صعودها لشقة شقيقها.. وأيضا نزول أولاده عندها، لكن هذه المحاولات جاءت متأخرة.. بعد أن امتلأ داخله.. بل وفاض.. فراح الفائض يتناثر خارجه على هيئة تعنيفات حادة.. أو ملحوظات قاسية للأولاد، الأمر الذى أغضب مختار بدوره.. لتقع بينه وبين توفيق بعض المشادات الصغيرة.

إلى أن كان صباح الأمس.. صباحا أغبر.. لم تشرق له شمس! فى مدخل العمارة التقى الرجلان.. والأمر بالغ التفاهة تبادلا التجريح.. لينفعل توفيق بشدة.. حتى يمد يده دافعا مختار فى كتفه.. فإذا به يسقط على الأرض! وبسبب مرض الربو المزمن.. الذى يعانيه الأخير.. تسوء حالته ويفقد الوعى، عندها يتجمع الجيران والبواب وينقلونه إلى شقته.

يباغت ابنه الأكبر صلاح بالمنظر فلا يستطيع تمالك نفسه، يسرع إلى شقة عمته ويدفع بابها بكتفه فينفتح، لم يكن هذا أمرا غريبا.. فصلاح بطل الجامعة فى المصارعة، وبدون وعى يطيح فى

زوج عمته صفعا وركلا، طبعـا توفيق يفاجأ بهذا الهجوم فلا يجد أمامه إلا أن يهرول إلى السلم محاولا الهرب وصلاح فى إثره!.

بطبيـعة الحال لم تكن فوزية وقـتها فى الشقـة.. كانت هناك.. فوق، فى شـقة شقـيقـها.. عندما سـمعت بما حـدث له.. أسرعت تصعـد السلم مثنى مـثنى، لتعـود وتهبطه ثلاثا ثلاثا عندمـا تعلم ما وقع لزوجها، كان فى حـالة يرثى لها.. ليس فقط من الإصابة.. ولكن من الغـضب، لذلك لم يكن مـسـتـغربـا أن يسـتـدعى بوليس النجدة!.

بعـد المحضـر المبدئى اصطحب رجـال الشرطة مـعهم صـلاح ليبـيت فى الحجز.. ريثـما يعرض صـباح اليوم التـالى على وكيل النيابة، حتى بعد خروج الجميع ظل توفيق يهدر :

– ولد قليل الأدب.. بل ولد مجرم.. لابد أن يتربى.

وفى الجهة الأخرى كان مختار يولول :

– سيـضيع مستـقبل الولد، قليل الأدب فعلا وحـقا.. ولابد أن يتربى فعلا وحقا.. لكن ليس بتضييع مستقبله!.

وتحاول فوزية أن تهدىء من خاطره.. لكنه يصرخ فيها :

– أنت لا تعرفين القانون فلا تتكلمى، أنا خريج حقوق وأعرف عقوبة ما فعل صلاح، ليس أقل مـن عام كامل فى السجن، وطبعا الكليـة ستـفصله.. لا يقـبلون أن يكون أطباء المـستقـبل أصـحاب سوابق!.

فى الصباح قالت فوزية لزوجها :

– أرجـو أن تـكون قـد هدأت بعـض الشيء حـتى يـمكنك أن تفهمنى، تجنبت مناقشتك أو عتـابك على استدعائك للبوليس أثناء ثورتك، اليوم يجب أن تعدل أقوالك أمام النيابة، مختار افهمنى إنك لو قلت أن صـلاح ضربك حين كنـت أنت تضرب والده فسـيكون ذلك أمرا مخفـفا لسببين.. أولا أنه يصبح فـى حالة دفاع شرعى.. وثانيا أن ذلك وقع فى مـدخل العمـارة.. أى أنه لم يقتحم شـقتك معتديا على حرمتها.

خبط توفيق كفا بكف وهو يجأر ساخرا :

– أنا أقول ذلك؟!، ها.. تحلمـين، سأتمسك بأقوالى طبـعا.. لابد أن ينال جزاءه.

– إذن اقترح أى جزاء تقبلـه فيما بيننا، إن لم يكن من أجله هو ووالديه فمن أجلى أنا.. تـعرف مشاعـرى نحوه.. أحبـه كأنه ابنى تماما، ابنى الذى لم يقدر لى أن انجبه، لن تقبل أن يضيع مستقبله، إنه أمل والديه وأسـرته.. طوال دراستـه وهو متـفوق، بعـد أعوام سيصبح طبيبا.

لكن كلماتها تعود إليها ميتة دون صدى.. يجيب بإصرار :

– كل هذا لا يعنينى.. لا شأن لى به.. ليأخذ القانون مجراه!.

ويسـتمـر الجـدل بينهـما.. ويطول، لكـنه لا يلين أبدا، مع ذلك تكرر التوسل وتمعن فيه حتى تكاد تركع عند قدميه :

– مسـتعد هو ووالده ووالدتـه والأسرة جمـيعا لأية ترضـية، يقبل رأسك.. يقـبل يدك، يقف لك بلا حراك وأنت تضـربه ما طلب لك.. بيدك.. بالعصا.

وكأنما هى تقرع أبوابا صماء.. يقاطعها :

– الترضية الوحيدة التى أقبلها هى أن أراه هناك.. فى السجن.. خلف القضبان!.

تشهق وقد انكسر شىء فى أعماقها.. كان يوما ينبض بالسعادة حتى تقول بمرارة :

– ليس هذا بمستغرب عليك.. فمن أين لك – ولم تنجب قط – أن تعرف غلاوة الضنى ومعزته؟.

وتزداد ثورته.. رغم أنك قد تكونين السبب؟

– عموما هذا شىء خارج موضوعنا، لقد اتفقت مع مختار وزوجته أن نقول جميعا أمام النيابة ما ذكرته لك.

– هكذا؟.. أى أنك ستكذبين؟

– سيسامحنى الله.. مادمت أكذب لدرء ضرر.

بدأت تشم رائحة حريق الكلمات فوق شفتيه :

– هل تعلمين ما يعنيه هذا؟ إنك تفضلين ابن شقيقك على شريك حياتك الذى التزمت أمام الله بالإخلاص له!.

– هذه مقارنة فى غير محلها، لو أن ما أدلى به أمام وكيل النيابة كان حتما يضر بواحد منكما.. لأصبح حقك على أن انحاز إلى صفك أنت، لكن اقوالى سترفع الضرر عن صلاح.. وفى نفس الوقت لن تمسك بسوء، لا أظن أنك إذا لم تتشف لهذه الدرجة فى ابن أخى ستضار ضررا بليغا غريب أننى – رغم العشرة الطويلة معك – لم أكن أعلم أن نفسك بكل هذا السواد.. – اسخرى ما شئت

لكن.. ليكن معلوما لديك.. قسـما برب العزة.. إذا لم تؤيدى أقوالى أمام النيـابة ستكونين طالقـة بالثلاثة.. ومحـرمة على كـمثل أمى وأختى!.

ظلت ساهمة فتـرة شلت فيها حواسها. لم تتـصور أن العلاقة الزوجيـة يمكن أن تبدد بهذه البـساطة.. بكلمة ينطقـها زوج ثائر، وكأنها بالونة افلت طرفها من بين أصابع من يمسك بها!.. أو حلم من تلك الأحـلام التى تنسى عـقب الاسـتـيـقـاظ، لم تعـقب على تهديده.. فقد حوت نظرتها إليه كل ما يمكن أن يقال، تحركت ببطء وقد أحست أن كل شىء فى البيت أصبح غريبا عنها!.

أمام وكيل النيابة تجمع أقوال الكل على رواية الأستاذ مختار.. ليس فـقط والدة صـلاح وعـمـتـه وأخـوته.. لكن أيضـا البـواب والجـيران.. حـيث شهـدوا الجـزء الأول من الأحداث.. حـين وقع مخـتار على الأرض بعد أن دفعـه توفيق، كما رأوا الفـصل الثالث والأخير عندما كان صلاح يضرب توفيق فى نفس الموقع.. بعد أن جرى الأخـير خارجا، فى حـين لم يشهد أحـد قط واقعة اقتـحام صلاح للشقة، لذلك لم يجد وكيل النيابة داعـيا لاستمرار حبسه.. من ثم أفرج عنه لعدم.. توافر أركان التهمة.

قبل أن يصل القطار إلى الإسماعيليـة.. كانت فوزية قد تخففت كثـيرا من أحزانهـا، امتدت إرادتهـا إلى جسدها الذى كـان يغرق تحت هم ثقيل فى محاولة لانتشـاله.. رغم أنها كانت تعلم جيدا أن مـشـوارها ليس هينا.. حـيث أطول طريق للهـرب هو مـا يجـربه

الإنسان بعيـدا عن نفسه!. اخرجت صــورة صلاح من حقيبـتها.. قالت فى دخيلتها :

– أراد الله بهذا أن يشعرنى أننى لم أحرم من الانجاب، الأمومة كلمة محـدودة لمشاعر وتصرفات غـير محدودة، إنهـا ليست فقط عملية الوضـع أو الرضاعة.. لكنها قبل هذا وذاك.. تضحية!.

تســامت نظراتهـا وعلت.. حـتى حدود الأحـزان النبـيلة، بدأت تجفـف دموعـها.. هذه الدمـوع كانت دمـوع ألم فقط.. لكنهـا أبدا لم تكن دموع ندم. تمتمت فى همس :

– لو تكررت هذه الواقعة مـائة مرة. لكان رد فعلى هو هو فى المرات المائة.

٩

الأهم فالمهم

أشعة الشمس تتراقص على حوائط القاعة المكتظة بالجالسين، اضطرت عزيزة أن تدور بعينيها حتى وجدت مقعدا واحدا شاغرا فى أقصى اليمين، بعد أن اطمأنت إلى جلوس الحاجة أم عوضين عليه.. أنزلت ابنتها هدى من فوق كتفها.. ثم وقفت بجوار مقعد الحاجة.

هدى الصغيرة انطلقت تعدو بعد تحديد إقامتها فوق كتف أمها ساعات طوالا، عينا الأم تتبعانها فى كل خطوة بحنو وإعزاز، فى عدوها راحت خصلات شعرها المنسدلة على جانبى وجهها تتماوج.. فتمتمت الأم فى سرها «من شر حاسد إذا حسد»، فجأة

تلحظ أنهـا تعرج فى حركـتها بعـض الشىء.. تتمعن فـيهـا قليلا لتكتشف غياب إحدى فردتى حذائـها، وما أسرع ما تجذبها بعنف وهى تصيح :

– أين فردة الحذاء؟

– وقعت.

– وقعت؟.. أين؟.. متى؟.. كيف؟.

تنهـال عليهـا ضـربا لكن بلا فائـدة.. هى ابنة الأعوام الثـلاثة لا تستطيع أن تحدد بالضبط مكان أو زمـان سقوط فردة الحذاء، ينادى التومرجى على الحاجة أم عوضين فتدخل معها للكشف، ثم تخرجان إلى الفناء الخلفى للمستشفى تحت شجرة مورقة تفتحان القراطيس التى معهما وقد حوت ما لذ وطاب.. لكن أم هدى لا تجد لهـا شهـية للأكـل، متكدرة لضـياع فـردة الحـذاء، هكذا عودتهـا الحياة.. دائما أحلامها مبتورة.. مـا أن تحقق لها أملا حتى تفجعها فى أمر آخر.. أو تتقاضاها مقابله ثمنا فادحا.

من زمـان وهى تتـمنى زيارة البندر بـشوارعـه المرصـوفـة.. وحوانيته الأنيقة.. الملأى بالبضائع من كل لون، أيام وشهور وهى تدخـر بعض القروش فى انتظار هذا الحلم أن يتـحقق، تـرى ماذا تشتـرى وماذا تترك؟ الأهم فـالمهم طبعـا.. أول شىء تريد شراءه زجـاجة الرائـحة وإيشـارب مـشجـر بالورد الأحـمـر.. ثم بعض الأساور الزجاجية وتوك الشعـر، وهى لن تحرم نفسها من بعض خيـرات البندر.. أقراص الـطعميـة الساخنة والحـلاوة الطحيـنية

الشعـر.. ثم تختتم هذا كله بزجاجـة بيبسى مثلجـة، ولكن.. كيف السبيل إلى زيارة البندر وزوجها نفسه لا يذهب إلى هناك إلا مرة كل بضعة أعوام؟.

قبـل أن يتسرب الـعمر تـهبط الفـرصة وكأن طـاقة القـدر قد انفتحت لهـا، جارتهم والدة الخفير عوضين.. اعـتادت التردد على المركز لتكشف فى المستشفى الأميـرى هناك.. كلما سافر عوضين نفســه فى مهمة، هذه المرة المهـمة عاجلة.. إشارة لابد من إبلاغـها للمركز.. ولا مفر ـ إزاء عطل تليفون العمدة الوحيد بالبلد ـ لا مفر من إرسال الإشـارة مع عوضـين، لكن زوجة عوضـين مشـغولة بالخبـيز أمام الفرن.. والأم مـتعبـة جدا.. فمن عســاه يرعاها عند دخولها للكشف؟

وتعـرض المهمة عـلى أم هدى التى تكاد تطير من الفـرح.. لكن ها هو الفـرح يتلاشى كـالحلم الذى ينسى عـقب الاستـيقـاظ، أو يتحول إلى كابوس بضياع فـردة الحذاء، إنه حذاء جميل جاءت به ابنة العمـدة من القاهرة.. ثم أعطته لها عندمـا كبرت قدما طـفلتها عليـه، فهل حـضرت إلى البـندر لمحاولة اقـتناء أو إضافـة أشيـاء جميلة لهـا ولأولادها.. أم لإضاعة ما كان منها مـوجودا من قبل؟ أيضا لا شك زوجهـا سيوبخها.. «أين كنت حـين وقعت؟.. وكيف لم تتنبهى لذلك ؟ ».. الخ.

بيد أن توبيخ زوجهـا مقدور عليه، الأنكى كلام حـماتها.. الذى يبدو وكأنها اعتادت نقعـه فى السم الزعاف قبل أن تنطقه.. لتفتت

به كل جزء من جسـدها المهزوم، إنها تتسقط لهـا أية هفوة لتروح تقيمها «مندبة»، وهى طبعا لم تكن موافقة على سفرها إلى البندر، حـيث هى من بداية زواج ابنهـا صنعت لزوجتـه قـوالب محـددة راحت تصب فيها أيامها.. لتجـعل حدود عالمها تبدأ من أمام الفرن وتنتـهى عند الحظـيرة، لـكن من أجل غـلاوة عـوضـين عند والد هدى.. كسر قوالب أمه لأول مرة وسـمح لها بالسفر، أكيد الأم لن تفـوت هذه الفرصـة.. وستظل ـ مـثل النحلة ـ تزن.. لتجـعل من ضياع الحذاء الثمين حدوتة أبو زيد الهلالى.. تقول فيها وتعيد.

ويخطر لهـا خـاطر.. ماذا لو عـادت للسـوق كى تبـحث عنه؟ استأذنت من الحـاجة أم عوضين وذهبت إلى هناك.. فـى طريقها مرت على المركز لتـجد الخفير عـوضين مازال واقفا أمـامه.. فور رؤيته لها قادمة بدون أمه أنزعج بشدة، لكـنها طمأنته على نتيجة فحـص الحاجـة.. وحكت له عن سبب عـودتها للسـوق، عوضـين بدوره كان يشـعر بالأسى.. قـالوا له إنه ربما يضطر للمـبيت فى المركز، سأل أم هدى عـما إذا كان فى استطاعتها الـسفر هى وأمه بدون صحبته فأكدت له ذلك.

ها هو ذا السوق.. خال تماما بعـد أن فرغ أوان البيع والشراء.. يلفه الصمت البليغ الذى يغطى على كل الأصوات، فى الصباح كان يشبه خلية النحل، انتهت الصـفقات وعاد الجميع إلى منازلهم، من هو سعـيد أنه قد وفق فى صفـقة طيبة.. وآخـر حزين لاضطراره إلى بيع جاموسة كانت عزيـزة لديه أو خروف كان يود الاحتفاظ

به للعيد، صورة صغيرة للدنيـا ومفارقاتها، على أرض السوق هنا وهناك تناثرت بعض البـقـايا، راحت عينا عـزيزة تتـجولان فـوق المخلفات باحـثة عن فردة الحـذاء.. لكن عبثـا.. لم يكن لها من أثر على الإطلاق.

بدأ الليل الأسـود ينسكب فى الميدان.. كـما لو كـان القمـر هو الآخر مكتئبا فانزوى بعـيدا وقد بهت ضوؤه، الرياح أيضا تدخلت لحملها على الانصراف.. بدأت عزفها بإيقاع بطىء. ثم أسرعت فى هوس مجنون.. عـادت أم هدى إلى المستـشفى تجـرجر مع أذيال جلبابها.. الأسى والأسف، قبل أن تصل مع أم عوضين إلى موقف الأتوبيس الملاصق للمـستشـفى لتعود إلى القـرية سمعت خلفـها صوتا يناديها، التفتت لترى الخفير عوضين نفسه يحث الخطا كى يلحق بهما قبل أن تركبا.. هتف وهو يلهث :

– الحمد لله أن لحقتكما.. فالأمر هام جدا.. وتنتعش آمال عزيزة فتصيح بلهفة :

– ما هو يا عم عوضين؟.. طمنى وحياة والدك.

– مجلس الشعب انحل.. والوزارة كلها استقالت.

– نعم؟..

كادت عيناها تبرزان من محجريهـما وهى تنظر إليه غير فاهمة

ـ ماذا تقول؟.

كرر ما قاله لها ثم انثنى يؤكد عليها :

– أرجـوك يا أم هدى.. بمجـرد وصـولك البـلدة أن تذهبى إلى

دوار العمدة لتقولى له هذه الأخبار الخطيرة، هذه الأخبار من المهم جـدا أن تصل إلى العمـدة الليلة، وكمـا تعلمـين.. التليفـون هناك عطلان.. وأنا مضطر للمبيت هنا.

تقفز مشاعر خيبة الأمل على ملامحها وهى تردد :

– حاضر..حاضر يا عم عوضين.

قفل عوضين عائدا إلى المركز.. فى حين سارت أم هدى ممسكة بيد جـارتها الحـاجة تعيـنها على السيـر ، غمـغمت وكأنهـا تكلم نفسها:

– ولا أهمـيـة ولا يحزنون.. فـرحت عندمـا وجـدت الخـفيـر عوضين يعدو ورائى ويقول لى إنه يحمل أخـبارا على جانب كبير من الأهمية.. ظننته وجد فردة حذاء هدى.

١٠

الخبر بالصورة

ما كادت راوية تنتهى من حكايتها.. حتى وجدت هادية نفسها تعود بذاكرتها إلى الوراء، فتستحضر فى ثوان ذكريات أكثر من تسع سنوات مضت، أيام وفاة والدتها.. وكان والدها قد سبقها أيضا بأعوام إلى رحاب الله، وهكذا ألفت نفسها - وهى بعد فى بداية دراستها الثانوية - وحيدة من كافة الأقارب سوى شقيقتها الكبرى راوية.

ورغم أن هذه الأخيرة لم تكن تكبرها بأكثر من عشر سنوات.. إلا أنها كانت تمتلك ينابيع لا تجف بمرور الزمن، سرعان ما نفضت عنها أحزانها ومضت ترعاها بكل حزم وحنان، فكانت

لها الأب والأم والأخت جـميعا!، حتى أن سـعادة هذه الأخت ربما كانت أكثر من سـعادتها هى نفسها.. عندمـا حصلت على الثانوية العامـة بمجموع كبـير.. والتحـقت بالكلية التى طالما تمنتهـا.. كلية الإعلام، يوم ظهور نتيجـة مكتب التنسيق قالت لها وهى ترد على قبلاتها بأكثر منها :

– كم اتمنى أن أرد لك ولو جزءا صغيرا من جمائلك وتعبك من أجلى.. ويكون ذلك فى مناسـبة سـارة.. زفافك مثـلا، لست أدرى كيف عمى الشـبان فى أسرتنا وجيرتنا ومحـيط معارفنا عن كنز من الجمال والرقة والمشاعر والأخلاق.. اسمه راوية؟!.

ضحكت راوية وهى تغمغم ياستى أنا لست مـتعجلة.. وعموما كل شىء بأوان.

طبعـا هادية لم تكن تعلم أى شىء عن ذلك الحب الرقـيق الذى ربط بين قلبى شقـيقتـها، والدكتـور عاطف.. طبيب الشـركة التى تعمل بها، حتى أنهما كانا قد اتفقا على الزواج.. وكان ذلك من قبل وفاة والدتهما، الـصدفة وحدها التى ساقتهـا ذلك اليوم مبكرا من الكلية.. لشعورها بألم فى جنبها منعـها من التركيز فى المحاضرة، عندمـا دخلت المنزل كـان د. عـاطف مع شـقـيـقـتهـا فى غـرفـة الصالون.. وقـد دارت بينهما مناقشـة حادة حتى أنهما لـم يحسا بقدومها، حدتهما جعلتها تسمع حوارهما من خارج الغرفة.. كانت راوية تحتج باستنكار :

– كيف أترك هادية وليس لها سواى ؟!.

- يا ستى لم أقل أبدا أن تـتركيهـا.. وماذا هناك أن تقـيم معنا بعد الزواج؟.

- صعب جـدا يا عاطف، قد نرزق بأولاد فـاشغل بهم وبك عن الاهتمام بها وبدراستها و..

قاطعـها : لكنـها لم تعـد الطفلة الصغـيرة المحـتاجة لرعـايتك، وافقـتك أثناء دراستها الثـانوية لأنها فعـلا فترة دقيـقة، وها هى وفقت وتفوقت، كنت أظن مـسئوليتك تجاهـها تنتهى عندما تضع قدميها على أعتاب الجامعة، أحبك يا راوية ولم أعد أستطيع صبرا، لقد انتظرنا ثلاث سنوات طويلة قـاسية. عشناها وحيـدين.. فماذا بعد؟، هل ننتظر أربع سنوات أخرى حتى تتخرج؟!

- لا طبـعا.. لم أقل حـتى تتخـرج.. عاما أو عـامين فقط حـتى يشتد عودها وتتعود على الدراسة الجامعية.

عند هذا الحـد من الحـديث شـعرت هاديـة أن آلام جنبهـا قـد تبخرت.. أو هى تناستها تماما، أسرعت تغادر الشقة قبل أن يحسا بها، عادت إلى الجامعة، ولكن ليس إلى قـاعة المحاضرات، سحبت استمارة وقدمتها تطلب فيها الإقامة ببيت الطالبات.

بعد أسـابيع جاء الرد من إدارة الجامـعة بالموافقة، وكـان يوما عاصفا.. وسعـيدا، راوية هى التى تسلمت الخطاب.. فأسرعت إلى هادية تستفسرها، بهدوء ردت الأخيرة :

- لا أقف فى طريق سعـادتك.. إنها نصيبك فى الحـياة.. ومن حقـك أن تحصـلى عليها ، ولقـد صدق د. عاطـف حين قال إننى

لم أعـد طفلة.. وأن طالبة جـامعـية مـحتـرمة تسـتطيع أن ترعى نفسـها.

حـاولت راوية أن تحـتج.. لكن هادية كـانت بارعـة فى لعـبـة الحـوار، ويبـدو أن هذا هو ما أهلـها أن تنجح فـى مهنتـهـا التى أحبتها.. مهنة البحث عن المتاعب.. الصحافة، قالت لشقيقتها :

– ثم من قال إنك ستكونين بعيـدة عن متابعتى؟، على العكس.. سيكون د. عـاطف لى الشقـيق الذى لم تلده أمى.. حتـى يشاركك الاهتمام بى، أنا واثقة من ذلك.. واثقة من حـسن اختيارك لشريك حـيـاتك.. أن يكون على خلـق، وأيضـا من عـدالة السـمـاء.. التى لا تكافىء من كانت حنونة المشاعـر طيبة الطباع.. إلا بمن هو على شاكلتها.

كم مرة رددت هادية : مـا أسعد من سـتكون طفلتك يا راوية، فعندك فيض من المشاعر.. وقد جربته أنا من قبل حين غمرتنى به.

لكن مع الأسف.. تأخر حـمل راوية أربع سنوات، رغم تلهفـها هى وعـاطف على الأطفـال، حـتى لـم تعـد هادية تسـأل عن ذلك لشعورها أن هذا السؤال الحساس قـد بدأ يسبب لراوية كثيرا من الألم، بعد السنوات الأربع.. وفى يوم موافـقة رئيس مجلس إدارة المجلة الكبرى التى بدأت هادية العمل بهـا على تعيينها.. ذهبت إلى شقيقتها لتنبئها بالخبـر وتسعدها به.. وإذا بالأخير تفاجئها بخبر أكثر سعادة.. إنها حامل!، وتهتف هادية بسعادة :

– ربنا يتـمم بخيـر، اسمـعى.. تمنيت أن أقدم لك جـميـلا فى

زواجك لكننى لم أفعل شيئا يذكر، إن شاء الله عند الولادة.. سأحاول ذلك.

وترد راوية : حسنا.. بما أنك الآن صحفية قد الدنيا.. فالمطلوب منك عند قدوم الطفل أو الطفلة.. بعد سبعة أشهر بإذن الله.. أن تكتبى عنه خبرا فى مجلتك العظيمة.

تضحك هادية : فقط هذا؟!. عينى له.

لكن.. حين ولدت «سها» كانت هادية تبعد عنها بآلاف الأميال! هى فى الكويت حيث ولدت.. بعد حصول والدها على عقد عمل بها.. فسافر هناك مع راوية.. وهادية فى أمريكا مع زوجها بدران.. معيد بكليتها كان يعجب بها وهى طالبة لديه.. سافر إلى أمريكا للحصول على الدكتوراه فى بعثة مدتها أربع سنوات، فى منتصفها عاد للقاهرة فى إجازة قصيرة.. ثلاثة شهور، فى هذه الشهور القليلة التقى بهادية.. وتحابا.. وتفاهما.. وتمت الخطبة ثم القران والزفاف، بعد الزواج بأسبوع واحد سافرت معه ليستكمل بعثته.. حيث حصلت من المجلة على إجازة بدون مرتب.. وإن وعدت بأنها سوف تراسلها من هناك.

فى محادثة تليفونية بين الشقيقتين سمعت هادية بنبأ قدوم «سها» إلى الدنيا فراحت تكيل التهانى، فجأة تذكرت وعدها لشقيقتها فابدت أسفها لعدم استطاعتها تحقيقه، لكنها استدركت :

– لكننى لابد أن أوفى بوعدى إن شاء الله فى أقرب مناسبة، وربما يكون ذلك فى أول عيد ميلاد لها بعد عودتى لمصر، وسيكون الخبر بالصورة.

وتضحك الوالدة السعيدة.. يعنى الصورة كفوائد عن التأخير؟.

بمجرد عودة هادية للوطن أنهت اجازتها وعادت للعمل، رئيس التحرير كان سعيدا بها كل السعادة.. فحتى خلال إجازتها قامت بالعديد من التحقيقات.. وارسلت الكثير من الأخبار الشيقة والطريفة، لذلك أصبح يعهد إليها بالهام من التحقيقات، وهكذا أسند لها القيام بتغطية عودة المصريين من العراق والكويت.. بعد عدوان الأولى على الأخيرة، من ثم شدت الرحال إلى نويبع، قبل السفر بذلت الكثير من الجهود فى محاولة الاتصال براوية.. لكنها لم تفلح قط، لذلك رحبت بالمهمة الصحفية الموكلة إليها أملا فى أن تجد شقيقتها بين العائدين.

ثلاثة أيام أمضتها هناك.. قابلت فيها المئات، وكل منهم له رواية ومغامرة.. أغلبها موجع مؤلم، لدرجة أنها بعد أن كانت تأمل العثور على راوية وسط العائدين.. أصبحت تتمنى على العكس ألا تكون بينهم، لكنها فى آخر عبارة وصلت قبل مغادرتها نويبع.. تجد شقيقتها، وتندفع إليها.. تتعانقان وتضحكان وتبكيان! قالت راوية :

– تصورى.. إحساسى حدثنى إننى سأجدك هنا.. رغم أنه طبعا لم يحضر إلى نويبع كل صحفيى مصر وصحفياتها!.

فى يد راوية كانت توجد عروسة كبيرة.. خمنت هادية أنها عروسة سها.. سها الجميلة التى شاهدت عدة صور لها مع خطابات أمها إليها، لكن ترى أين هى؟ لابد مع والدها.. تدور

بعينها بحثا عنه.. تلمحه من بعيد مع أحد المسئولين ينهى بعض الإجراءات، لكن سها أيضا لم تكن معه، القلق بدأ ينشب مخالبه فى قلبها.. لدرجة أنها تهيبت أن تفرج عن السؤال الذى حبسته خلف شفتيها..أو ربما السؤال نفسه هو الذى كان يرفض الخروج، زاد من قلقها أمارات حزن رهيب تملأ عينى راوية.. إلى جانب دموع متجمدة أبت أن تسيل، لكن هادية تحاول أن تطمئن نفسها أن سوءا لم يحق بالطفلة الغالية «وهل لا يوجب الحزن ما حدث هناك من أهوال.. جعلت الجميع يعودون هكذا هائمين على وجوههم.. بعد أن فقدوا كل ما سافروا من أجله؟ »، قالت راوية بصوت باهت :

– رأيتك تكتبين المآسى التى قصها عليك بعض العائدين.. ألن تكتبى قصتى أيضا؟.

ردت هادية بخجل : لا ياراوية.. لن تكون قصتك للنشر طبعا.

صاحت راوية بحدة.. ورائحة حريق الكلمات تفوح على شفتيها :

– ولم لا؟، انشريها حتى يعرف من قاموا بهذا الفعل الذميم.. أى كوارث ترتبت على غزوهم.. الذى مزق البلد إلى أشلاء حتى لم نعد نستطيع تبين معالمها، منذ أول يوم للاجتياح المشئوم.. بدأنا نسمع عن أحداث القتل والسلب والنهب والاغتصاب، ورغم أننى لم أر بنفسى شيئا من هذه الأحداث.. إلا أنه كان الأقرب للتصديق صحتها.. أو على الأقل صحة بعضها، فما الذى يمنع

حدوث كل ذلك فى بلد لم يعد به قانون يحاسب أحدا على جرم ارتكبه؟. بلد أصبح يعيش على اخلاقيات الحرب.. التى تجعل الرعب هو السيد المطاع؟ الوازع الدينى أو الأخلاقى فقط هو الذى قد يتدخل لكن.. فى زماننا هذا ما أقل من يتمسكون بهذه القيم، كان أكثر ما يخيف عاطف هو الروايات التى قيلت عن حوادث الاغتصاب، خاصة وهو كطبيب كان مضطرا للبقاء فى المستشفى طيلة اليوم.. وأنا وطفلتى.. ذات العشرين شهرا وحدنا.

حتى وقعت حادثة مروعة من حوالى عشرة أيام، بعض الشبان الكوايتة كانوا قد كونوا فرقا صغيرة للمقاومة، ثلاثة من هؤلاء الشبان كانوا يقيمون فى عمارة مجاورة لنا، أحد جيرانهم لا أدرى إن كان أردنيا أم فلسطينيا أبلغ القوات العراقية عنهم.. فما كان من هذه القوات إلا أن نسفت العمارة بأكملها، فلماذا يعرضون أنفسهم للاقتناص وهم يبحثون عنهم.. أو ربما حتى لماذا يتعبون أنفسهم فى البحث بين جميع الشقق عن المطلوبين؟! بعدها قرر عاطف ضرورة عودتنا لبلدنا.

اتفقنا مع دليل يعرف دروب الصحراء أن يرشدنا ويأخذ ما يريد، كنا حوالى عشرين سيارة.. ظلت تسير وتسير.. وكأنه لا آخر لهذا السير، رغم أن سيارتنا كانت جديدة إلا أنها تعطلت، وكان الدليل قد حذرنا بأن نختبر سياراتنا جيدا.. فالسيارة التى تتعطل معناها موت ركابها الأكيد!، وكان هذا صحيحا.. فلم يكن ركاب أية سيارة أخرى يقبلون إضافة راكب واحد.. حتى لو كان

عددهم قليلا، أغلبهم حمل معه كثيرا من الملابس والأدوات، وهى حمل أيضا على السيارة وإطاراتها.. التى تجعلها سخونة الصحراء فى حالة حرجة، طبعا لم تتوقف سيارة واحدة من أجلنا.. بل استمرت القافلة كلها فى السير!، مرة أخرى إنها أخلاقيات الحروب، وكان أمامنا خياران لا ثالث لهما.. إما أن نظل فى السيارة فيكون موتنا مؤكدا.. أو نخرج منها فيكون موتنا غالبا، هذا الفارق الضئيل من بصيص الأمل هو الذى جعلنا نختار الثانية، حمدنا الله أن كان الوقت ليلا.. فانطلقنا نسير ونحن نأمل أن نصل إلى أى مكان مأهول قبل أن تشرق الشمس ثم تبدأ حرارتها، كنا نتبادل حمل سها مع حمل بعض الماء والمأكولات.. وكلما تعبنا جلسنا قليلا نستريح. دون أن نجد أى مدينة أو قرية.. أو حتى مخيم، انتهى الليل وأشرقت الشمس.. وشيئا فشيئا بدأت الحرارة ترتفع.. حتى أصبحت شواظا من نار، ونحن نتحرك هنا وهناك دون هدى.. ودون أن نجد حتى حائطا أو شجرة نستظل تحتها، وتمنينا لو لم نترك السيارة، بين الحين والحين نرى سيارة.. تمرق بجوارنا سريعا.. ونحاول أن نشير إليها لكنها لا تلتفت إلينا، بدأت حبيبتى.. قرة عينى.. سها تفقد وعيها بين يدى.. حيث اصابتها ضربة شمس، وكدت أجن وأنا لا أعرف ماذا أفعل وكيف أتصرف، حتى رحت أسكب الماء الذى معنا على وجهها دون تحسب للوقت الذى قد يطول بنا فى الصحراء بعد نفاد الماء، أخيرا. وبعد ساعات وقفت لنا سيارة لا تحوى سوى

زوج وزوجته.. يبدو أنهما لم يخرجا من بلديهما فى صعيد مصر إلا من فترة قصيرة، تكرم هذان الزوجان، باصطحابنا، وليتهما عثرا علينا قبل أن تصاب سها بضربة الشمس.. أو ليتهما لم يعثرا علينا على الإطلاق! فرغم الكمادات الباردة على جبهة سها داخل السيارة.. أى بعيدا عن الشمس.. فاضت روح حبيبتى الغالية.. مهجة قلبى إلى بارئها تشكو هذا الظلم الذى لحقها.. وهى البريئة التى لم تسىء إلى أحد أو ترتكب أى ذنب!.

عندما انتهت راوية من حكايتها حاولت هادية عبثا.. أن تبحث بين الكلمات عن حروف العزاء، وجدت نفسها تعود بذاكرتها إلى الوراء.. فتستحضر فى ثوان ذكريات تسعة أعوام سابقة.. ثم تتوقف عند حديثها التليفونى مع راوية.. عندما قالت لها إنها فى أقرب مناسبة تخص سها ستنشر خبر هذه المناسبة مصحوبا بصورتها، على ما يبدو كانت راوية فى نفس الوقت تتذكر نفس الحديث، إذ فتحت حقيبتها وأخرجت صورة.. من صور سها، لتقدمها إلى هادية فى ابتسامة مريرة :

– حتى تضميها فعلا للخبر أو الموضوع الذى ستكتبينه!.

١١

طالع
نازل

أخيرا ها هو «رمضان» فى طريقه إلى شقة طارق.. رغم كل العقبات! الفكرة خطرت له أول وهلة.. عندما أخبرته مدرسة فصله أنه لا دراسة للفصل كله اليوم.. حيث طلبة السنتين الثالثة والرابعة يمتحنون، إذن أمامه ساعتان يستطيع أن ينفقهما فى اللعب عند طارق.. ولا بأس أن يقول لوالده بعد ذلك عن الحقيقة.. حتى لا يدخل النار. كما أكدت له أمه عن جزاء الكاذبين، ما الذى يستطيع عمله عندئذ.. سيضربه؟.. ثمن تافه لمتعة كبرى وسعادة عظمى، من بوسعه أن يرى لعب طارق ولا يقول ذلك؟ المهم أنه لن يستطيع أن يعيد عقارب الساعة ليمنعه من الذهاب.. كما فعل حتى اللحظة.

والده يجلس كالأسد ـ كعادته دائما ـ أمام باب العمارة.. معنى ذلك أنه غالبا لن يستطيع فعلها.. ليت الوالد يذهب إلى أى مكان.. لكن الأمل كان ضئيلا.. فهو لا يبارح دكته أبدا إلا إذا كان طلب أحد السكان مستعجلا وصبياه غائبين.. اليوم صبياه جالسان من حوله إلى يمين وإلى يسار. مستحيل أن يخطر لثلاثة من السكان شراء أشياء فى فترة واحدة.

فجأة تذكر سلم الخدم.. إنه حتى لو ولج من المدخل الرئيسى فلن يستعمل المصعد.. وما حاجته به؟.. إنه يصعد الأدوار الإثنى عشر جميعا فى المناسبات.. ليرى الألعاب النارية والصواريخ من فوق السطح، فهل ستتعبه اليوم خمسة؟

لم يتردد.. هو دائما ينفذ أوامر والده.. أغلبها كان معقولا.. اليوم لا حق له فى الرفض.. فاللواء بنفسه هو الذى دعاه.. بل وأكد عليه.. حادثة تبدو غير قابلة للتصديق.. يحلو له كثيرا أن يستعيدها لنفسه ولأصدقائه فى المدرسة. وقبلها.. كان لابد أن يستعيد الحادثة الأولى.. لأنها هى التى أدت إلى الثانية.. العناية الإلهية وحدها من غير شك هى التى ساقته إلى المدخل الخلفى للعمارة فى ذلك اليوم. بل وتلك اللحظة بالذات، فإذا به يسمع صرخات واهنة ضعيفة.. جرى إلى مصدرها ليرى ذلك المنظر الرهيب.

بنت اللواء عبدالخالق متدلية حتى رأسها فى فتحة المجارى ومتعلقة بيديها الضعيفتين فى حافة الفتحة، انطلق يجرى إلى

والده وصبيانه الذين أدركوا الطفلة على آخر رمق. وما كادوا ينتشلونها حتى أغمى عليها.

الله وحده يعلم ماذا كان منظر اللواء عبدالخالق حين رأى طفلته.. إذا كان ذلك منظره بعدها بحوالى ساعة، كما الوحش الهائج، رغم أن رمضان كان سبب نجاتها إلا أن منظره أخافه.. حتى لجأ إلى الانزواء تحت دكة والده.. وصوت اللواء يهدد ويتوعد يصله حتى هناك!

وجاء بوليس النجدة.. والمطافىء.. والإسعاف.. بناء على استدعائه، انحصرت المسئولية أخيرا على جامعى القمامة. الذين كانوا يمسحون السلم والفناء الخلفى.. واضطروا إلى كشف غطاء المجارى لتصريف المياه.. ثم نسوا تغطيته!.

تشبث اللواء بأول الخيط وأصر على معاقبتهم.. زادت ثورته عندما أمسك بعصا زعافة الحوائط ودلاها فى الفتحة فكادت تختفى بأكملها.. ألقى بالخشبة بعيدا وجلس على الأرض فى حالة ذهول، ظل فترة يخبط كفا بكف وهو يردد :

– لا حول ولا قوة إلا بالله.. لولا لطف الله.. والولد الصغير.. لضاعت البنت، وما أبشعها ميتة.. ربما لم يعلم بأمرها أحد وظللنا نبحث عنها ملهوفين.. العمر كله. إن ذلك لإهمال جسيم.. بل جرم فظيع!.

ولا يشبع رمضان فضول السامعين عن مدى ما نفذه اللواء من تهديدات، سرعان ما يقفز إلى الصورة الثانية.. التى كانت على

عكس الأولى.. جميلة مورقة، يكاد يقسم أنها المرة الأولى التى رأى فيها ـ هو أو غيره ـ اللواء عبدالخالق يضحك، لماذا هو متجهم دائما؟.. يشبه منظر أبيه عندما اختلف مع صاحب العمارة السابقة ففصله.. وظل طويلا يتردد على مقهى النوبيين.. ثم يعود مقطبا.

أيامها سمع أكثر من مرة كلمة «خالى شغل، هل اللواء أيضا، خالى شغل»؟!. لكنه غنى.. جدا، لعب ابنه وحدها فى غرفته الصغيرة تكفى لفتح محل لبيع اللعب. ملابس أولاده الفخمة.. والسيارات الفارهة.. يقودها سائق تلمع على ذراعه الأشرطة.. لا يملك أبوه عشر هذا ولا يكف طول النهار عن الضحك، مع ذلك ما شأنه هو وتجهم اللواء.. المهم أنه فى المرة الوحيدة.. اليتيمة.. الخالدة.. التى ضحك فيها.. كان يضحك له هو!.. أكثر من ذلك داعب شعره بأصابعه!، ماذا؟.. هل كان فيها كهرباء؟.. كاد جسمه كله يرتعش.. بينما اللواء مستمر فى الضحك والتبسط :

– ابنك هذا يا عم عبده؟.

يبدو أن الضحك ينتقل كالعدوى.. أبوه أيضا ضحك وهو يرد بالايجاب، فيعود اللواء يسأل :

– هو الذى رأى الحادثة يومها.. أليس كذلك؟

نعم.. الحمد لله. جاء ساعتها يجرى بأقصى سرعة.

– يبدو أنه ولد نبيه.. اسمع.. دعه يأتى عندنا يوما ليلعب مع ابنى طارق.

– رد والده بغمغمة لا تكاد تبين.. فعاد اللواء يؤكد :

– ضرورى.. ضرورى من حضوره، وسأكون.. وكذلك طارق.. مسرورين من زيارته.

لماذا يرفض والده إذن؟. لا يستطيع أن يحضر له لعبة واحدة من عشرات اللعب التى عند طارق.. ثم يحرمه من فرصة كهذه تهبط عليه من السماء، لم تكن أول مرة يقف فيها هذا الموقف.. يوم نادته حرم الدكتور مؤمن وأعطته شلنا كى يشترى لها علبة سجائر.. اعترض بشدة وأعاد لها الشلن مؤكدا أن صبيه سيعود خلال دقائق، كانت تلك أوامره له دائما.

« لا تأخذ نقودا من أى ساكن»، مع أنه هو يأخذ منهم جميعا.. هل يفضل مكسب صبيانه على مكسب ابنه؟.. لم يكن ليستطيع مناقشة أبيه.. من ثم حمد الله أن حرم الدكتور عمدت إلى مناقشته.. رد عليها بكبرياء :

لن يكون خادما.. يكفى أبوه!.. أحرم نفسى من أشياء كثيرة كى أعلمه.. حتى يصل إلى مستقبل أفضل.

– ولذلك لا يتعارض مع تلبية طلب أى ساكن.

– بل سيشب ونفسيته معتادة المهانة!

– أى مهانة؟.. إنك معقد.

– إننى حر فى ابنى.. وإذا كنت متعجلة سأشترى لك أنا ما تريدين.. لكن ابنى لن يخدم أحدا.. حتى يستطيع أن يملأ مركزه عندما يصبح من السادة !.

لم يفهم شيئا يومها.. فى حين عاد والده يؤكد عليه ما سبق من أوامره :

– اعتبر نفسك كأحد أطفال السكان.. هل يستطيع ساكن أن يرسل ابن ساكن آخر ليقضى له أحد شئونه ويعطيه فى مقابل ذلك شلنا ؟

إذا كان حقا يراه مساويا لأبناء السكان.. فلماذا يمنعه من تلبية دعوة اللواء؟ قال فى دهشة :

هل تعتبرها حقا دعوة؟!.. كانت كلمة.. مجرد كلمة.. ربما نسيها ثانى يوم.. ربما اعترضت زوجته.. ربما بدوت فى عينيها قذرا.. ربما تعالى ابنه عليك ورفض اللعب معك.. لماذا تعرض نفسك للسخرية والطرد ؟

لا.. أبوه يبالغ.. طارق لطيف.. أكثر من مرة تحدث معه بود عما شاهده من أشرطة جديدة فى الفيديو، اللواء أيضا ليس طفلا يقول الكلمة ويرجع فيها.. ألم يقل أبوه ذلك عن نفسه ذات مرة.. الشعرات البيضاء فى رأس اللواء أكثر منها فى رأس أبيه، زوجة اللواء هى التى يخشى منها حقا.

متعجرفة للغاية، جلس على السلم دفعة واحدة.. ما العمل لو لم يكن اللواء بالشقة؟.. هل يكتفى الخدم بطرده أم يضربونه على جرأته؟.

دق قلبه الصغير بعنف لكن ساقيه لم تطاوعاه على النزول.. نافذة الجنة مغلقة كعادتها منذ شهر.. وهذا ما ضاعف عذابه، قبل

هذه الموجـة الباردة كـانت شرفـة حجـرة طارق المطلة على السلم الخلفى دائما مفـتوحة، كان يسره مـجرد رؤية اللعب المدهشة من بعيد، أروعها.. السيارة الحمراء.

أكثر من مرة تصور نفسه هو ـ وليس طارق ـ الجالس داخلها يتجـول بها فى «الفيرانده».. حـول المرجيحة الكبـيرة ذات الألوان البـديعة والكـرسى على هيئـة أوزة.. مـتفـاديا بمهـارة الحصــان الخـشبى الهـزاز والدراجـة الصــغيـرة، أعـادت مناظر اللعب فى خياله.. القوة والحماس إلى قلبه فعاد يكمل السلم.

آن للخـيال اليـوم أن يتجـسد.. تـلك مكافأته الوحـيدة.. مـاذا اسـتفـاد من الورقة الماليـة الكبـيرة؟.. لم يكن شـبح اللواء داخل سيارته قـد اختفى عن ناظريه بعد.. حـين مد والده يده وأخذها.. أقفل فمه على سؤاله فأطل من عينيه.. أجاب الأب :

– والدتك قاربت الولادة!.

كان والده يعلم من شهور أن الـوالدة تقترب من الولادة.. فهل كان يتوقع أن ما حدث سيحـدث وأن اللواء سيعطيه الورقة المالية ومن ثم رتب حساباته عليها! عمـوما لا بأس.. فالدعوة بالنسبة له أجمل.. وبالطبع لن يعاون والدته فى وضـع حملها.

قبل أن يعـود شبح إصبع والـده للمثول أمـام عينيه مـحذرا.. كـانت إصبـعـه هو تضـغط زر الجـرس.. بالكاد استـطاع إفهـام الخادمـة.. التى شهـقت مسـتنكرة، رجاها بلـهجة هى مـزيج من التوسل والتـصميم معـا ـ أن تبلغ سيادة اللواء.. عادت إليـه وقد

تغيـرت سحنتـها، سار خـلفها واجف القلـب، هز رأسه هزة ذات مـغزى وكـأنه يسر لنـفسـه.. «لم تكن مجـرد كلمـة قالهـا اللواء يا أبى.. لكنها كانت لحظة سعـادة انتزعت من فم الزمن الشحيح.. وها هو ذا ينفـذ وعده، وفى طريقـه إلى البـاب مع الهانم قـابلنى ورحب بى.. بل وأكد على خادمته أن تقدم لى شيكولاتة!».

حمـدا لله أنهما غـادرا المنزل.. سيسـتطيع أن يأخذ حـريته فى اللعب.. ولن يخـشى أن تـرتفع أنغـام الكمـان.. أو تعلو فـرقـعـة البندقية.. أو تشتد جلبة القطار الكهربائى أثناء سيره، طارق أيضا قابله بحفاوة.. دهش للحقيبة فى يده.. اضطر للرد على سؤاله :

– اذهب للمدرسة بعد الظهر.

– إذن أرنى خطك فى العـربى.. إن والـدى دائمـا يصف خطى بالرداءة.

لم ينتظر الرد.. بل بادر بفتح الحـقيبة.. وانطلقت فـرقعة.. لا.. لم تكن بداخل الحـقيبـة قنبلة زمنية، أسرع رمـضان يفـتح علبة الكبريت الصغيرة ليهـدئ من روع طارق.. الخجل يعوق حركته.. لماذا لقيه اليوم؟.. وما الذى دفعـه لأخذه؟.. لعب به فى حياته كلها مرات معدودة.. لدقائق.. بعدها كـان يتركه حيث وجده.. أول مرة يضعه فى حـقيبته.. ماذا سيـقول عنه طارق الآن؟.. صدق والده.. لم يكن من الصواب أن يصعد للـعب مع ابن اللواء عبدالخالق.. هل تحوى حقيـبة طارق المدرسية حشرات؟!. كـما توقع صرخ طارق منزعجا :

- صرصار.. صرصار.

لا.. إنه فرقع لوز.. ذلك أهون.. فالصرصـــار أكثر قذارة.. كأنما هو يقدم اعتذارا !

- بل هو فرقع لوز.

- صحـيح.. شكله يختلف عن شكل الصـرصار.. لكنى لم أره من قبل.

- هو نادر التواجد.. يمر أحيـانا عام وأكثر دون أن نرى واحدا منه.

- ولكن لماذا تحتفظ به؟.

هز كتفيه.. سأل نفسه هذا السؤال من ثوان.. لم يجد ما يرد به سوى أن يقول :

- أنظر..

وضـع سبابته على ظهر الحشرة الصغيرة.. فانطلقت تقفز قفزة عالية وهى ترقع بذلك الصوت العالى.. العجيب!

أفاق طارق من ذهوله ليضحك عاليا.. سأل باهتمام :

- هل يفعل ذلك إذا لمسته أنا؟.

أسرع يجرب، وتكررت الحركة.. وتكررت، وفى كل مرة يزداد انبـهـاره، بدأ الهدوء يـتسلل إلى نـفس رمضـان.. بل السـرور.. والزهو! لكنه مـا لبث أن بدأ يضـيق.. زادها طارق بعض الشىء.. لا يا طارق.. ليس فـرقع لوز باللعـبة الممـتـعة إلى هذا الحـد وأنا نفسى.. رغم حرمـانى من اللعب لم أكن اغتبط به هكذا، ترمـومتر

السرور بدأ ينخـفض عنده بنفس نسبة ارتفـاعه عند طارق.. هتف الأخير :

– ماذا لو أركبناه طائرة؟

أسرع إلى بعض أوراق القص واللصق.. عمل منها دائرة وبللها ثم وضع فـرقع لوز فـوقهـا.. لصق الورقـة ببطنه.. لمسـه.. قفـز بالورقة.. وقفز طارق أيضا وقد استخفه المرح :

الطائرة ينقصها ذيل!

بدأ يعمل بتـأن وعناية.. عمل الذيل ليس سهـلا.. أوراق عديدة تقص وتربط بخيوط وتلصق، أسند رمضان رأسه إلى كفه ينتظر فى استسلام.. لكن بعد فترة يمنحه الضيق بعض الجرأة :

– ألا تلاعبنى ببعض لعبك يا طارق ؟

هتف بدهشة : طبعا يا رمضان.. طبعا.. دقائق.

قفز فرقع لوز بالذيل.. لا شك أن شكله كان مبهجا جدا وإلا لما هلل طارق كل هذا التـهليل.. أما هو فـرآه سخيـفا غايـة السخف.. حتى أنه تجاهله تماما.

– ما هذا الصندوق الذى حط فرقع لوز بجواره ؟

– هذا إنسان آلى.

– ماذا يفعل؟.

– إنه رائع.. يسير بقدميه.. وعلى شاشة التليفزيون فى صدره تتابع مناظر الفضاء البديعة.. أنظر كيف.

انطلقت الفرقعة فقطع حديثه.. صاح بدهشة :

- لم ألمسه!!

رد بجفاء :

- أحيانا يقفز وحده.

- لكنه اختفى.. ترى أين ذهب؟.

- ماذا قلت عن هذا الإنسان الآلى؟.

أشاح بيده :

- أدره أنت يا أخى وتفرج عليه.

- كيف أديره؟.

- ضع السلك فى رأسه.

لكنه لم يعرف ، أخشى أن يفسده ، يستطيع تشغيل القطار ، رفع صوته متسائلا.

- أين هو يا طارق؟

تلفت طارق حائرا :

- لا أدرى والله.. آه ها هو.

قفز أسفل الدولاب ليخرج ممسكا بـ.. فرقع لوز.. غمغم.

هل عطل؟.. ألمسه فلا يقفز.

أحس بالشماتة.. بل لم يستطع أن يخفى سخريته.

- ربما ليس له مزاج!.

أثار ذلك اهتمام طارق وتشبثه باللعبة أكثر وأكثر.. أول مرة يلعب بلعبة لها إرادتها الخاصة.. فلا تستجيب لرغبته المطلقة وتدور عندما يريد، أشاح رمضان برأسه فإذا به يلمح - من خلال

النافذة ـ الشمس وقـد أوشكت على المغيب.. لم يبق إلا القليل على موعد عـودته من المدرسة. ويجب ألا يتجـاوزه.. حتى لا يزيد قلق والدته عليه.. من عقاب والده له. غمغم بأسى :

– كادت الدنيا تظلم.

تنبه طارق :

– هذا صحيح.

ترك فرقع لوز ومضى ناحية اليمين ليهتف رمضـان :

– لا.. دولاب اللعب من هنا يا طارق!.

لكن الأخير واصل سيـره حتى زر النور.. ضغطه.. ثم عاد إلى لعبته الجديدة مكررا محاولاته للتغلب على عنادها المفاجىء! وتقفز مشاعر خيبة الأمل على وجه الضيف الصغير.. فيم بقاؤه إذن ؟

– سـأنزل يا طارق.

– لم تلعب بعد.. اسمع.. هل تستطيع ترك فرقع لوز لى ؟

– بالتأكيد.. إننى لم أعد أريده قط!

– إذن سـأدعه الآن.. أين علبته؟.

فـتح طارق دولابه ولم يسـتـطع غلقـه.. كـانت بين ذراعـيـه الصغيرتين كـومة كبيرة من اللعب.. وضعها أمـام رمضان وأخذ منه علبـة الكبريت.. لكنه لم يودعـها كنـزه الثمـين.. رفع إصبـعه مستأذنا وكأنه أمام مدرسته :

– آخر مرة.. والله العظيم.

وقفز فرقع لوز.. كانت قفزته الأخيرة فعلا، كاد يصطدم بوجه

الخادمة وهى داخلة تحمل كوبا من اللبن.. شهقت.. أسرعت تخلع شبشبها.. وفى ثانية انتهى كل شىء!.. صرخ طارق :

– ما هذا ؟

– فرقع لوز.

– ما هذا الذى فعلته؟

– قتلته.

لكننى كنت ألعب به.. لقد أهدانيه رمضان.

– أهداك؟.. ونعم الهدايا! وماذا عسى كان يهدينا ابن الست أم رمضان سوى «البلاوى»؟. لقد ادهشنى وجوده هنا.. كان يجب أن أخمن.. لكن الغلطة ليست غلطته بقدر ما هى غلطتنا نحن.

رفع طارق الشبشب.. ياللكارثة.. ما هذه الفتافيت المتناثرة؟.. ذهب فرقع لوز إلى الأبد.. لا يستطيع أحد إصلاحه كأى لعبة تتحطم.. أيضا لا توجد محلات تخصصت فى بيعه.

وتذكر كلمات رمضان «يمر أحيانا عام وأكثر دون أن نرى واحدا منه»، كانت حسرته شديدة.. لم تمكنه من النطق.. حتى وهو يتناول منها كوب اللبن، لماذا ركز نظراته على وجهها كل هذا الوقت؟.. هل كان يبحث عن كلمة تعبر عن سخطه وغيظه وبغضه الشديد لها؟.. لكن يبدو أن جميع الكلمات لم تكن بكافية.. فجاة.. قذف بكوب اللبن على السجادة بأقصى قوته!، خبطت الخادمة على صدرها مروعة :

– أقسم بالله العظيم لن أمسحه حتى تأتى الهانم وترى كيف..

راحت تتكلم وتتكلم .. لكن كلماتها كانت تنحشر مقتولة عند فتحتى أذنى رمضان.. حتى اضطرت أن تهزه لتسقط عن أذنيه جثث الكلمات :

- أنت يا وش المصائب.. ألا تسمعنى؟.. أعجبك هذا؟.. هيا انزل.. اتفضل.. بسرعة!.

صاح طارق :

- اتركيه ربع ساعة.

ده لم يلعب بعد.

- ولا دقيقة واحدة.. حان موعد حمامك.

- حسنا يا رمضان.. اصعد مرة أخرى.. لا تهتم بكلامها.. كان يوما جميلا.

صاحت - وصورة مكبرة لتعب مضن فى تنظيف السجادة.. تكربها، بعد أن ظنت أن شقاء اليوم قارب الانتهاء :

- بودى لو يفعل.. حتى أكسر رجله!.

أسرع يقفز السلالم.. وفى نفسه يقين راسخ أن فرقع لوز لم يمت.. فقط كانت أول مرة يعرف فيها أنه يحس أحيانا ببعض المشاعر.. السعيدة عندما يلمس ظهره شخص ما بحنو.. فيقفز إلى أعلى، والمريرة عندما يدفعه بقسوة شخص آخر.. فينطلق متدحرجا.. إلى أسفل!.

١٢

الجريمة الفريدة للمطربة فريدة

لم يقاطعها ولا مرة واحدة طيلة روايتها لرحلتها مع الأنغام.. قالت فريدة :

– أحببت الغناء منذ نعومة أظافرى.. كما يقولون، بدأت من المدرسة.. فى حصة الأناشيد كنت أصول وأجول، واعتمدت على الأستاذة المشرفة على النشاط.. فى ترديد الأناشيد والأغانى ضمن حفلات نهاية العام، وأيضا فى بعض المناسبات والزيارات الهامة لمدرستنا، لكن هذه المناسبات لم تشبع رغبتى.. فأخذت أغنى فى أفراح الأقارب والجيران.

– من فضلك.. أريدك أن تحكى الوقائع التى حدثت لك دون أن تتدخلى بتحليلات أو تعليلات من عندك!.

– حسنا.. خطـر لى فى العام الماضى أننى سأضـع قدمى على أول سلالم المجـد لو أنى ظهرت فى التليـفزيون، حيث كـان مذيع الحفل.. أى حفل.. يصف أحد المطربين أو المطربات بأنه – أو أنها – نجم الإذاعة والتليفزيون، رغم أنه قـد لا يكون غنى فى التليفزيون سوى مرة واحدة.. وربما كـان ذلك فى أحد الإعلانات!، حتى هذه الأمنية الصغيرة تأخرت كثيـرا وتعثرت أكثر، إلى أن تحققت فإذا بها ضلالات وهم كاذب، اسـتطعت يوما أن أغنى فى التليفزيون.. ومن وقتهـا أصبحت أؤكد على أى مـذيع ألا يقدمنى إلا على أننى مطربة الإذاعة والتليفزيون، لكن هـذا اللقب الذى كان يتألق ببريق كبـريق الماس حول جـيد العـديدات من الزميـلات حتى سـاعدهن ودفعن كـثيرا.. لم يزد بريقـه حول جيـدى أنا على بريق الزجاج! لقد بدأ يخيل إلىّ أن الناس فى هذه الأيام قد أصـيبوا بضعف فى الذاكرة .. الجميع بلا استثناء، مـا أكاد أحدث أحدهم حتى يسألنى عن اسمى.. ويدهشه جدا أن أذكره بنفسى وباليوم الذى غنيت فيه أمامه، فيروح يفرك جبهته طويلا.. لكنه لا يستطيع أن يتذكرنى إلا بعناء وجهد شديدين.. وقد لا يتذكرنى على الإطلاق.

اعتدل الأستاذ فى جلسته بصورة متحفزة.. هتف :

– هذه النقطة مهمة جدا.. لذلك أريدك أن توضحيها تماما.

– حـدث لى ذلك حـتـى مع بعض الذين تعـاملـت مـعـهم فى الحفلات وفى التليفزيون وغيره، أدهشتنى هذه الظاهرة جدا، حتى أننى بت أظن – لكثـرة تكرارها – أنه وباء أصـاب البلد كله، إلا أن المدهش أكثر.. أن هؤلاء الفاقدين ذاكرتهم يسـتردونها فجأة عندما

يقـابلون بريمـادونا الحقل.. لـيحـاولوا هم بدورهم أن يذكـروها بأنفسهم!.

— هيه.. عظيم.. عظيم!.

رغم أنهـا لم تـسـتطع أن تدرك مـا هو العظـيم فى هذا الأمـر الغريب إلا أنها استطردت تكمل حكايتها :

— وهكذا لم أتقـدم خطوة واحـدة على طريق المجـد الفنى بعـد عمل سنـوات وسنوات فى هذا الحقل، كـان هذا ما أفكر فـيه وأنا أتصفح جريدتى.. عندما وقعت عينى على إعلانك الذى توجهه إلى المغموريـن فى التمثيل أو الغناء أو الأدب، لقـد جذبنى عنوانه «هل تريد الشـهـرة والمجـد والخلود؟.. اتصل بالبـروفـسـير مـتـولى عوض».. لقـد ظننتك وقتهـا مدير دعاية من نوع جـديد.. تبغى أن تضع خـبرتـك فى خدمـة من يريد، فـقلت لنفـسى.. ولم لا، ربما استطاع أن يلقى بحجره وسط أحلامى الراكدة فيحركها ويحييها، لكنى بعد أن رأيتك يخيل إلى أنك لست كذلك.

ضحك البروفسـير عاليا : لست كذلك فعـلا.. إننى عالم أجرى بعض الأبحاث.

— أبحاث؟!.. على أى شىء؟.

— مـهــلا.. لقـد سـألت نفـسى.. لماذا يصـبح بـعض الناس مشهورين بينما يظل البعض الآخر مـغمورين؟، وباختصار فطبعا خطوات بحـثى لا تهمك كثـيرا بالإضـافة إلى أننى قد لا أسـتطيع شرحها.. توصلت إلى أن هناك إشعاعا من نوع معين، عندما يشع من أحـد الأشخـاص يجـعل كل من يتعـرض له منجـذبا إلى هذا الشـخص، إنه يحاكـى الضوء المبـهر الذى يـجعل ذلك الشـخص

يتألق، وإن كان ضوءا غير مرئى، هذا الإشعاع يوجد عند بعض السياسيين.. والنجوم.. ولاعبى الكرة، فيزيد عدد عارفيهم وبذلك يصبحون مشهورين.. لهذا فنحن نجد أحيانا أشخاصا متوسطى الموهبة لكن شهرتهم جاوزت الآفاق، بينما نرى غيرهم يملكون الموهبة والاستعداد والعزيمة.. لكنهم رغم كل ذلك يبقون دائما فى الظل، السبب أن الأولين أوتوا ذلك الإشعاع الفريد دون الآخرين، وكلما زادت نسبة هذا الإشعاع لدى شخص.. زاد عدد من يعرفونه ويسمعون به وينجذبون إليه!.

هتفت مندفعة : كما ينجذب الفراش ناحية الضوء؟.

ضحك تشبيهك به قدر من المطابقة.. لكن هناك تشبيها أكثر دقة أستطيع به أن أقرب لك الأمر، فنقول كما ينجذب الحديد إلى المغناطيس، نعم هذا الإشعاع له خاصية مغناطيسية تجذب إلى صاحبها الناس.. فيلتفون حوله ويحيطون به ويتابعونه دائما، عبدالحليم حافظ مثلا.. قطعا كانت لديه كمية من هذا الإشعاع أكثر من أى شخص آخر، لا شك فى أنه كان موهبة فذة ولكن.. ألا تعتقدين أن هناك - فى طول البلاد وعرضها - مواهب ربما تقاربه لكن أحدا لم يحس بها؟.

- بل إن هذا مؤكد.

- لماذا إذن؟.

- لأن الفرصة لم تتح لأحد منهم.

- الفرصة.. الحظ.. القسمة والنصيب.. المصادفة، هذه كلها تعديلات غيبية يقولها من لا يعرف تفسيرها الصحيح، حيث لابد من وجود تفسير علمى لكل شىء، لقد لفت نظرى فى حديثك

أشيـاء تؤكد مـا ذهبت إليه، مـثلا إن الكثيـر من الملحنين سـمعك وأثنى عليك.. لكن أحـدا لم يحاول أن يتـبنى موهبـتك.. كمـا فعل الراحل بليغ حمدى مع عفاف راضى.. مثلا.. وغيرها، ربما لم يكن صوتك أقل جـمالا من صـوت عفاف.. لكن بليغ لـو رآك لما التفت إليك. كما حدث ولابد أنه لم يلتفت لأصوات أخرى لا بأس بها من قبل، لكنه ذلك الاشعاع الذى تتـمتع به عفاف راضى وحرمت منه أنت!.

قالت فريدة مبهورة : نعم.. نعم.. هذا يفسر أشياء كثيرة.

ضحك البروفـسير : لا تحاولى أن تسـبقينى، فعـلا إنه يفسر أشياء كـثيرة، أنت مثلا جـميلة.. جدا، نادرا ما نجد واحـدة تتمتع ببشرة لها لون الضوء الذى تحاصره ستائر وردية.. كبشرتك عدا عينيك الساحرتين.. مفروض أن من يراهما مرة واحدة لا ينساهما أبدا.. مع ذلك يـنسـاك الناس ولا يتــذكـرونك إلا بجـهــد وعناء شديدين.. كمـا قلت، حتى من لقيك بل ومن تعامل مـعك أكثر من مرة، طبـعا هذا ليس سبـبه ضعـف ذاكرة الناس.. فهم يتـذكرون أشخـاصا آخـرين.. السبب الحـقيـقى فيك أنت.. أنه ضـعف ذلك الاشعاع لديك!.

عينا فريدة مـتعلقتان بفمه فى تربص.. تتلقف كلمـاته باهتمام شديد، سألت بقلق :

– والنتـيـجـة؟ هل أسلم بحظـى وأكف عن السـعى؟ هل أترك أحلامى تفر إلى بعيد.. تضيع.. تتلاشى؟!

لمعت عيناه : ولماذا نشرت إعـلانى ذاك إذن؟، بعد تجارب أعوام عديـدة.. استطعت تخليق هذا الاشـعاع فى مـعملى، ونجـحت كل

التجارب المعملية.. ولم يتبق إلا التـجربة الأخيرة على إنسان، فهل تقبـلين أن أشحنك بذلك الاشـعاع ونرى هل سـتكونين مشـهورة بعدها أم لا؟

أجابت بحـماس مندفع : لا أوافق فقط.. بل أرجـوك، وحتى إذا انتهت الـتجربة بموتى فـإن بقائى فى دائرة الظـل هو موت أدبى، وفى رأيى.. الموت الفعلى أهون!.

صاح باسـتنكار : ما هذا الذى تقولين؟! هل قـال لك أحد أننى سـفاح أجـعل من الآدمـيين فـئران تجـارب؟ إذا فـشلت التجـربة ـ لا قدر الله ـ فإنك لن تشعى على النـاس.. وبالتالى لن تصبحى مشهورة.. أى ستظلين كما أنت الآن، هذا كل ما فى الأمر.. لا أكثر ولا أقل.

– اتفقنا.. وإذا نجـحت التجربة فـإننى على استـعداد لدفع كل ما تطلب.

ضـحك : أنا لا أطلب شيـئـا إلا نجاح أبحـاثى، انظرى كم أنت مجنونة بالطرب؟. بنفس القدر وأكثر أنا مجنون بالعلم!.

أسبوع كامل وفريدة تتردد على معمل البروفسير متولى، بعده أخبـرها أنها قد أصبـحت مشحونة بقـدر كبير من ذلك الاشـعاع المبهر، وسألها عن أول حفل سوف تغنى به.. فأخبرته أنه سيكون بعد ثلاثة أيام، وما أسرع ما اشترى تذكرة له رغم عزوفه السابق عن مثل هذه الحفلات، وهو يتوقع أن حـدثا هاما لابد سيحدث فى ذلك الحفـل.. لكن بعد يومـين فقط.. أى قـبل الحفل بيـوم واحد.. سمع جـيران المطربة فـريدة صرخة شـقت سكون الليل، فاقـتحم بعـضهم الشـقـة ليجـدوا زوج المطربة جـثة هامـدة على الأرض،

بجـواره جلست فريدة وفى يدها سـكين كبـير يقطر دمـا، نظرت إليهم بعيون تحجرت داخلها الدموع وراحت تتمتم بذهول.

– كنت أحبه بجنون، لقد ضحـيت فى سبيله بكل شىء.. برضا أهلى حيث إنه دون مستوانا بكثير، أصبح هو كل العالم.. عالمى أنا على الأقل، رغم ذلك أحب أخرى.. وأتفق معـها على الزواج بعد أن يطلقـنى! الخطاب يحـوى كل ذلك.. بخـط يده.. هناك فى جـيب جاكتـته، كيف بعد أن منحته مـع حبى كل شىء؟ لماذا وهى ليست أجمل ولا أصغر ولا أكثر ثراء منى؟ علامات استفهام ظلت تتكاثر وتتوحش لتفترسنى، اقـرأوا الخطاب ثم أعذرونى.. كلماته وجمله وحروفـه اجتاحـتنى كأنهـا سيول تكتـسح أمامـها آخر حـصون العقل، لا.. لن تهنأ به واحـدة غيرى بينما انزوى أنا أجـتر آلامى.. قتلته قبل أن يدمرنى!.

فى الصبـاح التالى .. صباح يوم الحـفل.. فوجىء البروفسـير متـولى وهو على مائدة الإفـطار بجرائد الصـباح كلها تركـز على خبر واحد.. مطربة تقتل زوجها بسكين، مع التفاصيل المستفيضة والصور العـديدة للزوجين منذ الزفاف وحتى الحـادث، ثم صور القاتلة بعد الحادث، وصور للجثة.. أيضا صور الجيران والزملاء.. بل وحتى البواب عدا صور رجال الشرطة والنيابة.. مضى أسبوع كامل.. ولا حديث للصحف.. كل الصحف.. إلا عن الجريمة الفريدة للمطربة فريدة!؟ ليس فـقط فى صفحات الحـوادث ـ التى أفرغت تماما لوصـف تلك الحادثة ومتـابعة كل مـا يستـجد من أخـبارها ومحاولة جلاء أى غموض يحـيط بها ـ وإنما امتد النشر أيضا إلى باقى الصفحات، صفحات العلوم ملأتها تحليلات علماء النفس عن

التـغيـير الذى جـعل المرأة تستـخـدم السكين فى القتل.. بعـد أن انحـصــرت جـرائم النـسـاء من قـبـل على السم والقلـيل جـدا بالرصاص، ودلالات ذلك التغيير وأسـبابه. وصفحات المرأة تقول محـرراتها أن الـسبب هو الظلم الشـديد الذى انطوى عليه قـانون الأحوال الشـخصية الجـديد للمرأة.. والذى اعتبـرته بعض النساء نكسـة للوراء فى حين كن يأمـلن فى مكاسب أكبـر تعالج أوجـه القصـور فى القانون السابق، ورحن يجـهدن أنفســهن كى يقدمن الأدلة على صدق دعاويهن وصفحـات الشباب تدلل بالجريمة على تمزق شباب هذا الجيل بين العديد من القـيم. أما عن صفحات الفن فحـدث ولا حرج.. انطلقت تحكى بالأخـبار والصور تاريخ حـياة المطربة القاتلة. مع حـرص شديد على عدم اغفال أى صـغيرة أو كـبيـرة فى تلك الحيـاة الحافلة.. وهـى التى لم تنشر عنهـا طوال حياتها سوى إعلانات مدفوعة الأجـر! لقد خشى البروفسير يوما أن يقلب الصفحات إلى صفحة الريـاضة.. فيكتشف أن القتيل كان رياضيـا مجيدا ومـن ثم فإن المحرر الرياضى ينعـاه ويبكى رفيع خلقه!

مع كل يوم كانت حيرة البروفسير وتوتره وتمزقه تزداد حدة، ترى هل كان يحـاول فى نهاية تلك الأيام أن يتـخلص من كل ذلك عندما أحضر جميع جرائد الأسبوع.. وراح ينثر صفحاتها الواحدة تلو الأخرى بعيدا فى أرجاء الغرفةالواسعة وهو يصيح : قولوا كل ما تشـاؤون.. والغطوا كمـا تريدون.. لكننى مع ذلك قـد نجحت.. نجحت نجـحت نجاحـا لا يحلم به إنسان.. رغم أنف كل مـا كتب وقيل!.

١٣

زيارة سريعة وأعـــود

عندما وجهت الحاجة أنيسة سـؤالها.. كانت تتربع فوق تقاطيع وجهـها كله ابتسامـة سعيدة، ويبـدو أنها كانت تتوقع أن يســعد السـؤال ابنتهـا بدورها. الأمر الذى جـعلهـا تدهش أشد الدهشـة عندما رأت اضطـرابها البالغ.. بل جـزعها.. لـدى سماعـه، حاولت رجاء أن تتماسك وتصطنع الهدوء وهى ترد :

- سأفكر ثم أرد عليك بعد بضعة أيام.

قالت الحاجة باستنكار : تفكرين؟!.

وردت الابنة باستنكار أكبر :

- أولا ترين الأمر يسـتحق التفكيـر، عندما تتـأهب طالبة للرد

على سؤال فى امتحان دراسى فإنها تفكر عدة مرات قبل أن تجيب، فكيف بسؤال فى موضوع ارتباط يترتب عليه مصير حياتها؟.. إنها إذن تفكر مائة مرة، فإذا كانت مثلى تقدم على الزواج لثانى مرة فإنها يجب أن تفكر.

قاطعتها الأم :

– ألف مرة طبعا، هذا إذا كان الأستاذ صادق يسألك هل تقبلينه أم لا، لكن الذى أعرفه أن هذا الأمر انتهيتما منه، وبناء عليه يتردد علينا بالزيارة.. كما تلتقيان فى المدرسة وخارجها، وسؤاله اليوم عن موعد حفل القران ففيم التفكير؟ إنه يقترح الخميس بعد القادم.. فما رأيك؟.

تنهدت رجاء :

– حسنا عندى زيارة سريعة.. وعندما أعود منها سوف اختار اليوم المناسب.

راحت تسير على غير هدى، من حق أمها أن تدهش فعلا لموقفها.. هى نفسها مندهشة منه، منذ شهور وصادق يلمح لرغبته فى التقدم لها.. ثم ترك التلميح للتصريح.. وهى وافقت، وجدت أنه أفضل شخص لها.. صحيح أنها لم تحبه ولكن.. ماذا جنت من زواج الحب غير الفاشل والمرارة والإحباط؟.. وأى حب؟.. أحبته بكل نبضة فى قلبها وكل خلية فى دمائها، «رائف» أيضا كانت لهفته عليها حديث الزملاء على مدى سنوات الدراسة بالكلية، لم يستطع أن ينتظر حتى يتخرجا.. تقدم لها وهما بعد فى عام

البكالوريوس، طبعا أسرتها لم توافق.. مستقبله غير واضح المعالم، قليل جدا من خريجي كلية الفنون الجميلة من ينبغ ويطير صيته.. الموهوبون فقط.. يعنى واحد بين كل مائة والباقون يعملون بالتدريس. مهنة ليست لامعة، «ترفضين طبيبا ومهندسا وصحفيا وتقبلين مدرسا؟» وإن لم تعد هذه المهنة مثلما كانت فى الماضى.. بعد أن ألهب سوط المجموع ظهور الطلبة ومن خلفهم أولياء أمورهم.. فأسرعوا جميعا يعدون خلف الدروس الخصوصية مما فتح أمام المدرسين مجالات ومجالات، طبعا مدرسو اللغات والعلوم والرياضيات أكثر حظا فى هذه الناحية.. أما مدرسو التربية الفنية فظلوا مربوطين على مرتبات مدارسهم!.

لكن رجاء تصمم عليه وترفض كل من عداه.. إنه الحب، وهو..؟ يستعلم من عناوين أعمامها وأخوالها ويروح يدور عليهم راجيا أن يتوسطوا له عند والدها، مرة أخرى إنه الحب، فأين اذن ذهب كل هذا الحب بعد أعوام معدودة من الزواج؟

طبعا لم يتم الزواج هكذا سهلا.. بعد كل الوساطات والمحاولات وافق الوالد أن تنتظر رجاء حتى يتخرج رائف ويرى أى عمل يلتحق به، وظهرت نتيجة التخرج.. الأول على الدفعة كلها، وفى الشهر الثانى يعين معيدا بالكلية. ليقدم الشبكة فى الشهر الثالث، فماذا يدعو للانتظار ورجاء بدورها تخرجت أيضا، طبعا ترتيبها متأخر كثيرا.. لكن هذا ليس معناه أنها أقل منه كفاءة أو موهبة - هكذا كانت تردد دائما - وإنما لتفرغه هو التام للرسم..

وانشغالها هـى بشئون والدها وشقيقهـا وأمور المنزل كله.. حيث والدتها معارة كناظرة مدرسة إلى دولة عربية.

العام الأول مـر سريعـا شأن الأيام السـعيدة.. كـشهـر عسل طويل، بعده بـدأت تعانى متـاعب الحمل، هى من أول الأمـر كانت تود إرجاء الانجاب لكن رائف رفض.. ذلك أمر خطير.. فمن يدرى إذا كانت تسـتطيع الانجاب أم هناك مـا يعوقـها، فإذا كـان الحال كذلك فالعلاج فى بداية الأمر يكون أسهل وأكثر احتمالا.

ويأتى «راشد» ملاك جميل يسـعد أى أم.. ورجاء طبعا لا تشذ عن أى أم، لكنها فى أحيان كثيرة تشـعر بالمرارة تخترم سعادتها، ها هى ذى تتأخر كثيرا فى فنها عن زوجها، أكثر من مسابقة فنية تقدما لها معا فيحصل هو على إحدى الجوائز الأولى.. ولا تحصل هى على شىء، أكـثر مـن معـرض قبل لـوحات لرائف ولا يقـبل لرجاء أية لوحـة، وسحب الثـورة والسخط تتجـمع داخل نفسـها وهى تكبتـها، حتى أصـبح داخلها كمـا الاتون الذى ينتظر شرارة صغيرة لينفجر!

وجاءت هذه الشـرارة ذات يوم. فى صورة إعلان عن مسـابقة فنية فى الرسم إقامتها إحدى الهيئات.. قدمت رجاء الإعلان لرائف فى صمت فأخبرها بأنه قد قرأه.. سألته :

– هل تنوى التقدم بلوحة لك ؟

– طبعا.

صمت قليلا ثم سألها :

– وأنت؟..

لم تجب للحال فعاد يردف :

–أرى أن توفرى جهدك.. فالمسابقة ليست سهلة.

صرخت :

– تعنى أننى لست كفئا لها؟!

تلعثم :

– لا.. أقصد.. يعنى.

قالت بمرارة :

– أين ذهب منطقك وبلاغتك؟. تريد أن تبحث بين الكلمات عن حروف العزاء المخففة؟، ولماذا التخفيف؟ قلها صراحة.. ألم أفشل أكثر من مرة؟ لكن لا.. أنت تعلم السبب، من غير المعقول أن تظن سبب فشلى المتكرر نقص فى امكاناتى.. غير واضع فى اعتبارك السبب الحقيقى، نعم لا يمكن أن تكون جاهلا به والأصح أنك تتجاهله.

كان يستمع إليها باندهاش حتى انتهت فسأل وهو ذاهل :

– عن أى شىء تتحدثين بالضبط؟!

– عنك طبعا.. يا فنان يا عظيم.. يا حاصل على أكبر الجوائز، ولماذا لا تكون فنانا عظيما وأنت تتفرغ لفنك ملقيا على عاتقى بكل الأعباء التى كان يجب أن نتقاسمها، هذه الأعباء قتلت الفنانة داخلى وحولتنى إلى ربة بيت عادية.. لا.. أقل من ذلك.. إلى خادمة، لقد كنا كلانا.. أنا وأنت.. نعمل من أجلك أنت فقط، أبعدت عنك كل شىء لتنقطع إلى مرسمك.

وتزداد دهشته :

– هل تدركين معنى كلامك هذا؟ كما لو أنك تغارين من نجاحي!، لا أكاد أصدق ما أسمع.. إنك زوجتي. تحملين اسمي.. من ثم كان خليقا بك أن تفخري بنجاحي.

– كان هذا حقك على لو أنني كنت ربة بيت أو مدرسة فقط.. الأمر الذي يجعل كل صفتي في الحياة.. حرم الفنان فلان، أما وأنا فنانة مثلك فإن من حق وواجب كل منا أن يعمل لبناء نفسه ومستقبله، بل كان من حقي أن أحظى بالرعاية والمساندة من زوجي لو أنني تزوجت موظفا ينتهي عمله في الثانية فيهتم بالشئون الحياتية ويوفر لي أن أتفرغ لفني!

حاول أن يهدئ من ثورتها فلجأ لممازحتها :

– نعم.. موظف له «كرش» يعود إلى المنزل العامر حاملا بطيخة كبيرة.

عاودتها المرارة التي ادخرتها طويلا في دهاليز أعماقها المظلمة :

– طبعا تضحك.. وماذا يمنعك؟ ألم تحقق كل أهدافك؟.. على حسابي!

بدأ يشم رائحة حريق الكلمات على شفتيها.. احتد :

– لا.. لا أقبل هذا.. انتقي كلماتك من فضلك ولا تتركي الغضب يجعلك تخطئين.

– لم يكن كلامي وليد غضب لكنه قناعتي التامة، إن التزامي

بطلبـاتك وطلبات ابنك والبـيت والمشتراوات و.. كـل شيء.. شغل جميع وقتى فأهملت فنى.. لقد ظلمت فى هذا الزواج!.

– هكذا يا رجاء ؟.. كأنك نادمة على زواجنا؟

– لا تتصور إلى أى حد.

– لكنه تم.

– ما تم على خطأ يمكن – بل ينبغى – إصلاحه وتداركه!

– وكيف ـ بالله عليك ـ يكون ذلك؟

– ننفصل!.

– أجننت يا رجاء؟.. وحبنا؟.

– حبيبك الذى يتسبب فى خسارتك.. هو العدو المبين.

خبط كفا بكف :

– أنا تسببت فى خسارتك؟، لأننى أفـوز بجهدى وموهبتى؟ إن زملائـى ـ مجـرد زملاء ـ يهنئـوننى بهذا النجـاح ولا يشعـرون بالغيرة تجاهى.. وأنت...

قاطعته :

– طبـعـا زملاؤك لا يـضيـقـون بنجـاحك لأنك لم تأخـذ من رصيدهم الفنى لتضيف إلى رصيدك.

ويصيح :

– مرة أخرى ترددين هذه الترهات؟

– ليست ترهات.. ألا ترى أنه لم تكفك أحـمال مسئـولية المنزل تلقيـها على كاهلى فـصممت على الانجـاب لتزيد الاحمـال ثقلا..

ومازلت تضغطنى معها حتى انكفأت فوطئت أنت كتفى بقدميك لكى تزداد فوقهما علوا.

صفعته كلماتها.. هرول يخرج من المنزل غاضبا وهو يهدر :

– اظن أننى لن أستطيع أن أسمع أكثر من ذلك.

للحق أنه ـ رغم غضبه من كلامها ـ لم يفرط فى الرابطة التى بينهما بسهولة.. لكنها الحت وصممت.. ثم تركت البيت، وفى المقابل حاولت والدتها وأشقاؤها والأسرة جميعا إثناءها عن موقفها لكنها ازدادت به تمسكا «فراقنا أصبح حتميا.. كالموت، أحبه نعم.. لكن حبى لمستقبلى الفنى أكبر، هو الجزء من حياتى أما فنى فهو حياتى كلها، الزوج والزواج ممكن أن يتبدل ويتكرر لكن خط الحياة الذى رسم منذ الطفولة وسرى فى الدم لا يمكن تغييره».

وكان لها ما أرادت.. تم الطلاق، بدأت تحس أنها تسير خفيفة، بل تكاد تطير من فوق الأرض بعد أن تخففت مما كان يثقل كاهلها.. فوالدتها ـ رغم حيويتها الزائدة ـ لم يعد عندها ما يشغلها بعد أن خرجت إلى المعاش وتوفى عنها زوجها وزوجت أصغر ابنائها، من ثم كانت تقوم بكل شئون المنزل، وحتى شئون «راشد» الصغير تولتها جميعا بخبرة ودراية وحب وحماس.

طبعا تقدمت رجاء للمسابقة لكن، كالعادة فاز رائف بالجائزة الأولى فى حين لم تفز هى بأية جائزة، لكن هذا ليس معناه أنها أخطأت التقدير، لم يكن معقولا.. وقد جاءت فترة عملها فى اللوحة

أثناء تركـــهـا المنزل بكل مــا صـاحـبـه من تـوترات ومـؤثرات ومحـاورات.. أن تعمل بتـركيز كـامل، إنها تنتج فنا وليس رسـما للمحـمل على منزل حاج عـائد من أداء الفريضـة، لا بأس.. ليست هذه أول المســابقــات وبالطبع لن تـكون آخـرهـا، وإلى أن تأتى المسابقة القادمة تكون الخلخلة التى أحـدثها الطلاق فى حياتها قد استقرت، كما الدوامات التى يحـدثها حجر القى إلى ماء.. ما تلبث أن تتلاشى.

فى هذه الفـترة تعـرفت على الاسـتاذ صـادق.. مدرس اللغـة العربيـة الجديد فى المدرسة التى تعـمل فيهـا، وأحست باهتمـامه بها.. ذلك الاهتـمام الذى كان يزداد كلمـا حدثته أكـثر عن نفسـها وعن لوحاتـها التى أهدت بعـضا منها لـلمدرسة، منذ شـاهد تلك اللوحات وهو ينظر إليـها بإنبهـار، قال لها إنهـا فنانة ممتازة.. بل إنها ثروة قـومية ينبغى رعـايتها والمحـافظة عليها، وتهيـئة أنسب الظروف من أجل أن تتفجر مـوهبتها فينطلق ابداعها أكـثر وأكثر، أجمل ما يسعد الفنان كلمات التـقدير.. إنها الزاد الذى عليه يعيش وبه ينمـو ويكبر، لذلـك تفاهمت مـعه بـسرعـة وأصبـحت أطيب أوقاتها تلك التى تقضيها معه!.

الشهور تمر وهى متـفرغة لفنها.. تنتهى من جدول حـصصها سريعـا وتقفل عائدة إلى منزلهـا، وفى الحجرة التى اتخـذت منها مرسـما تروح بحماسـة وجدية ترسم وترسم، تحدوها ثقة شـبه مؤكدة فى الفـوز بإحدى الجوائز الأولى عندما يعلن عن مـسابقة

جديدة. وجاءت المسـابقة.. وتقدمت بلوحة مبـتكرة.. لم تكن أجمل لوحاتها وحسب.. وأيضا أكثر لوحة استغرقت منها جهدا ومعاناة، لابد أن تتفوق على رائف هذه المرة، قالت لها والدتها :

مالك وإياه؟، لتكن أمنيـتك أن تتفوقى على كافة المتـقدمين.. أم أنك مازلت تفكرين فيه؟

دهشت حتـى أنها لم تستطـع أن ترد بغير تلك الـنظرة الحادة المحملقـة، فى قاعة العـرض دارت على جميع اللوحـات، عم كانت تبـحث بالـضـبط؟ وترد.. على لا أحـد.. أو ربما عـلى صـوت من داخلهـا ، طبـعـا لابد أن أبحث عن لوحـة رائف.. لأطـمـئن على مسـتواى مقـارنة به، لكنها لم تجد له أية لـوحة ـ مع أنه لم يكن يترك أى مـسابقـة دون أن يشتـرك فيـها، وأحست بالقـلق، كان المفروض أن تسر لغيابه.. الذى يجعل فرصتـها أكبر، فمهما حدث بينهما لا تستطيع أن تتجاهل موهبته الفذة.. وإذا كانت هى لم تفز بجواره بسبب انـشغالها بالمنزل فمـاذا عن باقى زملاء دفعتـهما.. وما سبقها وتلاها من دفـعات.. لم يتفوق واحد منهم قط عليه فى أى تنافس، وعادت ترد على الصوت الضئـيل بداخلها «أمر طبيعى أن أقلق علـيـه.. أليـس والد ابنى؟.. ألم يكـن بيننا خـبـز وملح و.. حب ؟».

تجمع أكـثر من زمـيل وزميلة، بعـضهم مـازال على صداقـته برائف.. لكنهـا لم تستطع أن توجه إلى أى منـهم سؤالا عنه.. وإن تمنت من قلبـها أن يجىء ذكـره وسبب غـيابه حتى ولـو بصورة

عابرة بين زمـيلين منهم.. لكن لم يحدث، عندما عـادت إلى منزلها طلبتـه تليفـونيا.. لكنها ارتـبكت عندما جاءها صـوته على الطرف الآخر.. فـأسرعت تغلق الاتصال، وجـدت نفسهـا تجهش بالبكاء، حـمدا لله إن لم تشـاهدها والدتها.. فـبم كـان عسـاها ترد عليهـا لو سألتها سبب دموعها وهى نفسها لا تعرفه؟!

أخيرا ظهـرت نتيجة المسابـقة، لابد هناك أمر غير مـفهوم.. أو ربما تدخلت مـصالح ومـجـاملات، شىء غـيـر طبيـعى بالمرة ألا تحـصل على أية جـائزة.. لا الأولى ولا الثـانية ولا الثـالثـة ولا.. الأخيرة، هذه اللوحة رسـمتها بذوب وجدانها وعصـارة دراستها وخبـرتها، وما كان أجـمل أن يقف الأستاذ صادق بجـوارها يشد أزرها ويخفف عنها :

– لم تكن الجوائز أبدا دليل التفوق.. مع ذلك فستحصلين يوما على أكبر الجوائز، هذا اليوم – بإذن الله – قريب جدا.

عندما تكررت نفس النتيجة فى المسابقة الثالثة نظرت إليها أمها طويلا ثم تمتمت باقتضاب :

– ألا ترين الآن أنك قد ظلمت رائف؟

كان هذا أكثر ما تخشاه.. لم تحـزن لعدم الفوز قدر تخوفها أن يشارك أمـها نفس التفكيـر أغلب الأصدقاء والأقارب، ردت عليـها بمرارة :

– أما زلت تذكرين؟ لقد نسيت هذا الموضوع تماما.

فى غرفتـها ظلت على مقعـدها حتى أنها لم تتنبه لهـبوط الليل

فتوقد النور.. وأمر واحد يشغل تفكيرها «غير صحيح أننى نسيت لكن كان لابد أن أقول هذا ما دام هو بالفعل قد نسى كل شىء، ألا يتعمد فى كل مرة يحضر لرؤية ابنه أن يتم ذلك فى الصباح عندما أكون فى مدرستى؟».

طوال هذه الفترة وصلتها بالاستاذ صادق دائما وثيقة.. وشبه اتفاق غير معلن بينهما على الارتباط، وإن كانت تستمهله دائما حتى تحقق ذاتها على طريق الفن، وهو بذات الحماس يوافقها مقتنعا بأهمية هذا الهدف وحيويته بالنسبة لها.

يوما تقرأ فى الجريدة خبر قرب افتتاح أول معرض للفنان رائف، معرض خاص؟ وهو بعد فى هذه السن؟ وهى التى قلقت عليه عندما تخلف عن الاشتراك فى مسابقتين؟ طبعا كان يستعد للمعرض.. فلم تعد تلك المسابقات مناسبة لمكانته! كم حلم بذلك المعرض.. وكم حلمت معه.. ستتولى هى تنسيقه.. ويرد عليها «لا أظنك سوف توفقين فى ذلك»، وقبل أن تغضب يعاجلها «فعلى سبيل المثال ما هى اللوحة التى ستضعينها فى الصدارة لو نسقت أنت المعرض» وتشير إلى أجمل ثلاث لوحات له «واحدة من هذه» فيضحك عاليا «ألم أقل لك لن تنجحى»، ويقترب من لوحتها الكبيرة التى رسمها لوجهها.. يربت عليها بحنان وهو يستطرد «هذه ستكون لوحة الصدارة» فيتبخر غضبها فورا ويتعانقان، ترى فى أى ركن مهمل تقبع تلك اللوحة الآن؟.

ويفتتح المعرض.. ويحقق نجاحا رائعا، فى كافة الجرائد يثنى

عليه نقاد الفن الكبار، فى أوساط الزملاء الكل يتحدث عنه بانبهار، كم تتلهف لمشـاهدته.. لكنها مـع الأسف كانت لهـفة مـقصـوصة الجناحين، إنهـا فنانة.. يهمـها مشـاهدة معرض ناجح، وثمـة أمر آخـر.. كثـير من اللوحـات الأولى لرائف ـ قطعـا ستكون ضـمن المعروضات ـ لها عندها حنيـن وذكريات.. عندما كان يرسم وهى بجـواره.. تهيىء له الجـو المساعـد.. تحـضر إليـه بعض الشطائر والمرطبـات.. وقد يسـخن الجو وهو لا ينتـبه إليـه فتروح تجـفف عرقه.

لكنها تـكبح جماح رغـبتهـا طوال أيام المعرض.. وحـتى اليوم الأخير، عندما تفـاجئها أمها بذلك السؤال «متى تحـبين أن نحتفى بعقد قرانك عـلى الأستاذ صادق ؟»، لتجد نفسـها تضطرب ظهرا لبطن.. أمر غريب، ليس الموضـوع جديدا، لقد تحدثا فيـه أكثر من مرة واتفقـا على بعض ما يتعلق به، فلمـاذا وقع عليها كالصـاعقة عندما جـد الجد وبدأ يدخل طور التنفيذ؟ أحـست كأن كل ذرة فى جسدها ترتعد فرقا.. تمتمت :

– حـسنا يا أمى.. عندى زيارة سـريعـة.. ثم أعـود لأحـدد لك الموعد.

مضت تسـير بسـيارتهـا على غير هـدى.. تصافحـها أسـماء الشوارع وأرقام المنازل، دخلت أحياء كثـيرة وميادين متعددة.. ثم خرجت منها، حـتى وجدت نفسها أخيرا أمـام معرض رائف. رأته يقف قـبـالـة البـاب.. لابد ينتظر أحـدا.. ترى مـن يكون؟ هل هو

شـخصـيـة خطيرة إلـى حد أن ينتـظره باهتمـام هكذا ؟ التـقت عيونهـما فأسرع إليـها.. تماسكت اليدان فتـرة دون كلمات، لكأنه كان ينتظرها هى ولا أحد سـواها، حيث اصطحبها ودخـلا القاعة متأبطين، وحمدا لله أن فعل.. فـقد استطاع أن يسندها عندما كانت تترنح وتقع على الأرض.

كانت لوحتها التى رسمها لوجهها تتصدر المعرض!.

١٤

خطـــاب إلى رومـا

قالت فاطمة هانم بأسف شديد :

– أهكذا ياحسن ؟.. صورتك وأخبار فعلتك فى جميع الجرائد؟ كيف أظهر بوجـهى أمام كافة معارفنا بعـد أن أسأت لهذه الدرجة إلى مظهرنا الاجتماعى ؟!.

زاد تأثرها حتى ترقرقت عينـاها بدموع ثخينة .. راحت تجرى فى الحفـر أو القنوات التى شـقتهـا فى وجهـها معـاول الزمن .. وما زالت شفتاها تبعثران الكلمـات ! تقفز مشاعر خيبة الأمل على ملامح حسن .. يصرخ :

– مظهرنا الاجتماعى .. مظهرنا الاجتماعى .. أهذا كل ما يهمك فى الأمر يا أمى ؟! .

كـان من حـقه أن يسـخط، فلم تكن تـلك هى المرة الأولى التى تتحدث فـيها أمه عن مظهـر الأسرة الاجتماعـى .. مؤكدة أنه أهم ماتحـرص عليه، لدرجة أنهـا عندما اكتـشفت العلاقـة المشينة بين زوجها الكبير المحترم .. والشـغالة الصغيرة بمنزلها .. لم تهتم إلا بأن يظل الأمر كله فى طى الكتـمان لا يعلم به مخلوق، أمـا الغيرة الأنثوية المألوفة فلم يكن لها فى رد فعلهـا نصيب ! دفعت للشغالة بسـخاء، ثم أبعـدتها عن المدينـة كلها .. بعـد أن هددتها بأنهـا إذا تكلمت سوف تضعها فى مستشفى للأمراض العقلية .. لتقضى به بقيـة عمرها، وعندمـا اطمأنت من هذه الناحـية .. عادت تسـتأنف حياتها من جديد وكأن شيئا لم يكن !!.

على ما يبدو سقطة الأب هذه .. أعطت للإنحراف كارت بلانش أن يصول ويجول داخـل الأسرة، فبعدها بدأت تنـزلق قدما الابن حـسن والابنة الصغـرى ماجـدة، بل والأم نفسـها .. بصـورة أو بأخرى، ألا تقول الأمثـال أنه « إذا كان رب البيت بالدف ضاربا .. فشيمة أهل البيـت كلهم الرقص » ، ولو أن ذلك ليس صحيحا على إطلاقـه .. وإلا فكيـف أصـبـحـت الابنة الوسطى «مـنال» هذه الشخصية الفريدة فى التفوق دراسـيا .. والمثالية أخلاقيا ؟، لتثبت أن الزهرة الوردية تنبت من الطين الأسود !.

المهم فى الأمر أن فاطمة هانم فى كل هذه الأحداث تصرفت من نفس المنطـلق، فـحـين عـثـرت وسط كـتب ابنتـهـا على بعض الخطابات.. التى أظـهـرت لهـا أن المراهقـة الصـغـيـرة على صلة

بمجموعة من الشابات والشبان الفاسدين، وأنها تخرج معهم إلى نزهات ورحلات تستغرق اليوم بطوله بعد أن «يزوغوا» من مدارسهم .. سارعت أيامها - بلهفة وحمية - إلى بسط خيمة الكتمان والتعتيم على الأمر كله أولا، ثم بدأت بعد ذلك على مهل وروية .. فى معالجة الخطأ الجسيم ! أيضا عندما اكتشفت أول علبة سجائر فى جيب جاكتة حسن .. وهو بعد مايزال طالبا بالمدرسة الإعدادية .. ارتاعت، لكن ذلك لم يكن خوفا على صحته أو حسن سلوكه وهو فى هذه السن .. ولكن خشية أن يعلم ذلك أحد فيتأثر مظهر الأسرة الاجتماعى المعهود ! لذلك لم يكن غريبا أن ينضم وهو فى المدرسة الثانوية .. إلى شلة الباحثين عن السعادة فى أقراص الفرفشة إياها، دون أن يحس أنه يخطىء فى حق نفسه وحق أسرته، بل وحق المجتمع بأكمله .. طالما استطاع أن يجعل تعاطيه هذا فى الخفاء ! والحق أنه حقق فى مقدرته على السرية والتمويه نجاحا كبيرا، حيث بذل فيه كل مايمتلك من ذكاء وقدرات ، وليته وجه ذكاءه هذا إلى أمور مفيدة .. إذن لأصبح له شأن آخر، لكنها تعاليم أمه الغريبة .. التى تربى عليها ووعاها جيدا !.

طبقتها حتى مع نفسها .. عندما بدأت تشرب فى بعض الحفلات الرسمية .. تحت وهم أن هذا يظهرها اكثر تحضرا ومدنية، وجرها هذا إلى الشرب مع بعض الصديقات فى منازلهن أو منزلها، لتنجرف بعد ذلك إلى الإدمان، عندها فقط بدأت تفيق

إلى نفسها وتلجأ للعلاج، وهى فى كل تلك الخطوات تتستر وراء الكتمان والسرية والإخفاء، واضعة مظهر الأسرة الاجتماعى فوق كل شىء، حتى استعجال الشفاء من إدمانها البغيض ، كل هذه الأمور أطاحت بثروة الأسرة .. أو أغلبها، حتى وجدت فاطمة هانم نفسها - عقب وفاة زوجها - لا تملك سوى قناع الكبرياء الزائف.. الذى تمسكت به أيما تمسك .. رغم أن العمر قد مضى ولم تبق إلا فلوله !.

علبة السجائر فى المرحلة الإعدادية .. جرت حسن إلى الأقراص فى الثانوية .. ثم السجائر المحشوة فى الجامعة ! بعد تخرجه لم تتوقف خطواته .. بل استمر يصعد السلم المدمر - أو يهبط بمعنى أصح - مندفعا .. كمثل قطعة من الحديد الممغنط .. لا فكاك لها ولا مهرب .. ولا إرادة !!.

حتى كان ذلك اليوم الذى بدا فيه الفندق الفاخر بالعاصمة الإيطالية «روما» .. فى حالة كبرى من الهرج والمرج، الدنيا داخله مقلوبة رأسا على عقب، حتى تحول الفندق كله إلى خلية نحل، حتى الرياح خارجه أبت إلا أن تشارك فى سيمفونية القلق، بدأت عزفها بإيقاع بطىء .. ثم أسرعت فى هوس مجنون، النزلاء فى كل ركن يمضغون الثرثرة مع الطعام، الإستجوابات تتفرق لتشمل جميع النزلاء والعاملين - من المدير حتى أصغر فراش - ثم تعود وتتجمع حول النزيل المصرى الأستاذ حسن .. الذى يؤكد أنه قد قد قال كل ما عنده، وأنه لا يعلم عن الأمر شيئا، ويحتد ضابط الشرطة :

– إذن ما تفسيرك بشأن هذا الخطاب ؟.

فيرد بلهجة أكثر حدة :

– هذه مهمتكم، ولو أنني ضالع في الموضوع لتسلمت الخطاب في هدوء دون أن يعلم أي شخص عنه شيئا، هل نسيت أنني الذي أبلغتكم بالأمر حين سلموني الخطاب وفتحته لأفاجأ بوجود تلك الكمية من بودرة الهيروين داخله ؟

عند ذلك يعتذر الضابط في لهجة رقيقة :

– نحن طبعا لا نتهمك .. بل فقط نريد تعليلك للحادث !.

يهز كتفيه : لا أستطيع أن أقطع، ربما كان مزاحا ثقيلا .. أو مكيدة مدبرة، إنني أكثر منكم حيرة، آه، خطر لي الآن خاطر .. لماذا لا يكون الأمر تشابه أسماء فيكون الخطاب موجها إلى شخص آخر يحمل نفس اسمي .

– ولو أن احتمال وجود تشابه في اسم ثلاثي «حسن زكي عبدالحميد» أمر بعيد الحدوث إلا أننا فكرنا فيه، وتثبتنا من أسماء جميع المتواجدين في الفندق .. فلم نجد أحدا يحمل حتى اسمك الأول .

الوقت يدلول .. وتتكوم الدقائق والساعات في كتلة زمنية كبيرة .. لتنتهي تحقيقات اليوم الأول دون نتيجة، ثم إذا بالمفاجأة الكبرى تقع صباح اليوم التالي، نزيل يصل إلى الفندق .. ليسأل عن الغرفة المحجوزة باسمه منذ أيام «حسن زكي عبدالحميد !» موظف الاستقبال يتمالك نفسه بصعوبة حتى لايبدو على وجهه

أثر للقنبلة التى تفجـرت داخله !، بعد إصداره الأمر بتـوصيله إلى غرفته يسارع بإبلاغ الشرطة .

عقب مشاورات متعـددة بين رجال البوليس، يستقر رأيهم على الخطة المثلى لنـصب نسـيج العنكبـوت المحكم .. من أجل الإيقـاع بالذبابة المنتظرة .. حتى تسـقط فيه إلى حتفـها المحتوم مـتلبسة، صـدرت الأوامر إلى أفـراد الشرطة الذيـن كانوا مـتواجـدين فى الفندق بالإنسحـاب إلى مقرهم، وإلى جميع مـوظفى الفندق بعدم ذكر أى شىء من أمر الخطاب أمام النزيل الجديد، أو حتى أمام أى شخص آخـر .. وتناسيـه تماما كـأنه لم يصل، أو كأن الأمـر كله لم يكن على الإطلاق .

القـادم الجديد بدوره يحـاول أن يتظاهر بالتـجـاهل، وكأنهـا مباراة بين طرفين أيهما سيثبت على موقفه وقتا أطول، طبعا كانت الغلبة لرجال البوليس الواثقين من خطتـهم وإحكام مراقبتهم على النزيل دون أن يشعـر، بعد يومين يقلـق حسن على الخطاب الذى يحوى شحنته الثمينة، فيتقدم من الاستعلامات سائلا عن الخطاب الذى وعد مرسله أن يبعث به إليـه على عنوان الفندق، فور تسلمه الخطاب أطبـق عليـه أفـراد الكمـين .. ولـم يكن أمـامـه بُد من الاعتراف .

يعمل فى الاسـتيراد والتـصدير، انضم إلى شلة من المتـعاطين فى روما، وحـتى يتغلب على عـقبـة الكلاب المدربة على اكتـشاف حاملى الهيروين فى المطار .. اختـرع هذه الطريقة، قبل سفره من

القاهرة يحجز بالتلكس فى أحد الفنادق الكبرى بروما، ثم يرسل باسمه خطابا يحوى المادة اللعينة، وبعدها يسافر ليجد الخطاب الموعود فى انتظاره، وهو قد قام بهذه العملية ثلاث مرات، وفى كل مرة يغير الفندق إلى فندق آخر، وفى العمليات الثلاث نجحت الخطة، لم يكن فى وسع إنسان أن يصل تفكيره إلى الحيلة الشيطانية ! لذلك كان من الممكن أن يستمر نجاحها إلى عشرات المرات، لكن القدر الذى يمد للفساد فى الحبال .. لابد أن يأتى فى لحظة ويوقع مرتكبه فى شر عمله، وهكذا دبر - القدر - تلك المصادفة التى لاتحدث إلا فى خاطر مؤلف تليفزيونى واسع الخيال، شخص آخر تواجد فى نفس الفندق .. فى نفس الوقت .. ويحمل نفس الاسم الثلاثى !!.

وعندما رحله البوليس الدولى إلى القاهرة لإتمام التحقيق معه.. جاءت أمه لزيارته وهى فى شدة اللهفة، لكن ماأسرع ما تتمخض لهفتها عن نفس تفكيرها القديم .. فتروح تعتب عليه أنه بفعلته هذه أساء إلى مظهر الأسرة الاجتماعى، الأمر الذى جعله يخرج عن طوره ليقذف فى وجهها بكلماته الصارخة .. المشبعة بقطرات الأسى المرة المذاق :

- مظهرنا الاجتماعى .. مظهرنا الاجتماعى .. يا إلهى .. أمازال ذلك هو كل مايهمك فى الأمر .. يا أمى ؟!..

الفهــرس

رقم الإيداع ٩٩/٧٦٩٠

الترقيم الدولى

I. S. B. N.

977 - 08 - 0824 - 5